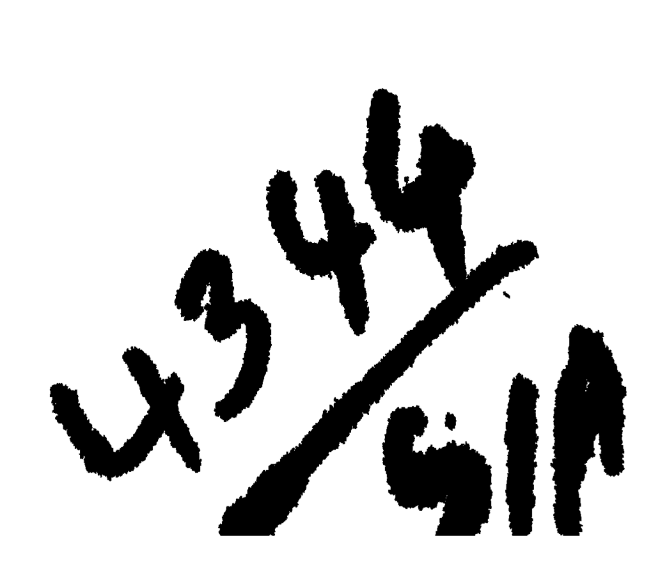
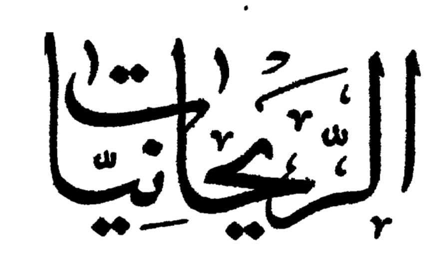




[illegible] مقالات وخطب

[illegible] شعر [illegible]



طبعة اولى

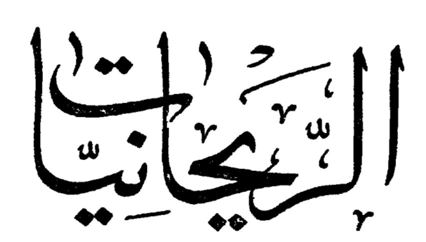
طبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر في بيروت سنة ١٩٢٣ و ١٩٢٤م

الريحانيات

الجزء الاول	يحتوي على مقالات اجتماعية ادبية انتقادية وبذور للزارعين
الجزء الثاني	يحتوي على خطب ومقالات انتقادية وشعر منثور
الجزء الثالث	يحتوي على مقالات اجتماعية انتقادية وخطب
الجزء الرابع	يحتوي على شعر منثور ومقالات اجتماعية وسياسية

ثمن كل جزء من الاجزاء ١٥ غرشاً مصرياً
او نصف ليره سورية * أو ثلاثة ارباع الريال في الاقطار الأمريكية
او روبيتين ونصف في البلاد العربية والمملكة العراقية

تطلب هذه الاجزاء من يوسف صادر صاحب المطبعة العلمية
والمجلة القضائية فى بيروت * ومن جميع المكاتب السوريه والمصرية



وهي مجموعة مقالات وخطب

وشعر منثور



تأليف

امين الريحاني

الجزء الثالث

يحتوي على مقالات اجتماعية ادبية انتقادية وخطب

﴿ طبعة اولى ﴾

طبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر في بيروت سنة ١٩٢٣



١

من حسنات الحياة زيارة الاندلس . ومن الكفارات عن ذنوب الناطق بالضاد الحج الى الحمراء التي قال فيها الشاعر :

تمد لها الجوزاء كف مصافح ويدنو لها بدر السماء مناجيا

ومن حظي اني كنت من الحاجين . زرت تلك البلاد المباركة في موسم ظننته اولا موسم الاعياد . ولكني بعد ان طفت في شوارع سفيليا (اشبيليا العرب) وتنشقت هواء برها . وشممت نفح طيبها . وسمعت حمارها وفلاحها وشريفها يتغنون ب اندلثيا — وهم يلفظون السين ثاء — ويناجون ربة السرور جودهم ليل نهار . بعيونهم وبأرواحهم الخفيفة ساعة الاشغال . وبالعود والقانون ساعة اللهو والطرب . علمت ان عام تلك البلاد موسم . ومواسمها اعوام يتلو الواحد الاخر دون انقطاع .

فالاندلس بلاد الرقص والقمار . بلاد الكنائس ايضاً وحرب الثيران . انما هي قطب السرور في فلك الاسبان بل هي في نظر الاندلسيين بلاد الله وحدها . لاشريك لها في ذا الشرف الفريد . وقد قال احد ظرفائها « خلق الله العالم في ستة ايام ثم جلس في اليوم السابع في الاندلس ليستريح »

على ان الزائر لا يرى حتى للخالق تعالى فرصة للسكون او

مجالاً للارتياح . فالكنائس مثل القهاوي والمسارح وبيوت الميسر كلها ابداً مفتوحة . تمثل فيها الحركة الدائمة . والناس قائمون قاعدون يودعون عيداً ويستقبلون اخر . ومن غريب الامور ولطيفها ان حيث تكثر الاعياد تقل الصلاة . فالاندلسيون قلما يصلون رغم مواكبهم الدينية العظيمة وموسيقى كنائسهم الرهيبة الفخيمة . وقد يحول ذا الجمال الظاهر في الاحتفالات . دون الصلوات . ولكن هذا بحث آخر ما لنا وله الان . الا اني اقول قد يستغني المرء احياناً في الحركة عن البركة . اذ لا وقت لمن عيده دائم ان يحاسب نفسه . او يحسد جاره . لا وقت يضيعه بالتذمر والشكوى .

والذي يخيل لي ان الله بعد ان جلس في الاندلس يستريح باركها ثم هجرها . وابناء البلاد حتى الان يعيّدون كتلاميذ المدرسة عند تغيب المعلم . وما اجمل ما فاح من تلك البركة . وما تجلى . وما تجسد . في تلك البقعة من الارض . ففي سمائها وفي شمسها عرش للعيد وهاَّج . وفي بساتينها وفي مروجها حلة للعيد لا تبلى . وفي هوائها جرثومة سحر تدخل قلبك فتشرع ترقص فيه حتى تستهويك وتستغويك فتخف الروح منك الى نقطة الدائرة في مدينة الطرب والسرور . بل تستوقفك بهجاً . دهشاً . نشواناً . فتسترسل مثل ابن البلاد . الى كل من رقص وكل من شاد . وتسير معهم من عيد صغير . الى عيد كبير الى عيد اكبر

الى عيد الاعياد في الربيع . ولكنك . اذا جئت الاندلس من لندره مثلاً لا من مصر . تتعب من الاعياد وتملها وهم لا يتعبون ولا يملون .

ثلاثة ابواب ينبغي ان تظل مفتوحة في وجه الاندلسي — باب القهوة . وباب ال « كاسينو » وباب الكنيسة . فهو اذا خسر في المقامرة يوم الكنيسة او القهوة حسب ذوقه والهامه . ليغير من حظه . ولم ارَ ما سوى ذلك في تلك البلاد للهرب من الاعياد باباً مفتوحاً . الا اذا لجأ السؤوم الى الجبال . او طفق يركض جنوباً حتى قادش او مالقه فيعتصم هناك بالبحر . او لبس قبع الخفاء الذي يجده في خزانة الغابر من الزمان . فان فيه باب فرج للمتفرج الغريب . اجل . ان في قلب الاندلس ملجأ قلما يلجأ الاندلسيون اليه . هناك مقام لا تسمع فيه ضجة العيد . ولا تصل اليه اصداء الاغاريد .

مقام بل مقامات هي اجمل ما في الاندلس اثرًا وذكرًا . وقد كان لها من السرور ايام زاهرة . ومن الطرب ليال باهرة عاطرة . ومن المجد اعلام وقباب . ومعاهد وانصاب . ما تبقى منها اليوم غير قصور متهدمة نبتت في جدرانها الاعشاب . ونظم العنكبوت مرثاته فوق النوافذ منها والابواب . وجلس في عروشها العالية السكون . ودفن في جناتها المهجورة الشعر والادب والفنون . وانك لتسمع لسكونها المهيب . وخلوها

من الانس الرهيب • همس الشمس وهي تتمشى في عرصاتها • ووقع نقط الندى من اغصان الليمون والرمان • على ورق الورد والبيلسان •

طلول كانت بالامس معاهد وقصوراً • وقصور كانت يوماً دائرة المجد . وقطب الجبور . في قناطرها وقبابها وابوابها صناعة دقيقة نادرة . وفي كل رسم من رسومها آيـة جمال تدهش حتى اليوم ارباب الفن . وفي كل بيت من الشعر على جـدرانها درة من المعنى . او زهرة من التقوى منقوشة في بلاط منقطع النظير لوناً وتذهيباً •

وصنائع الزليج في حيطـانها   والارض مثل بدائع الديباج

هذي آثار العرب وقد امست عروشاً لربة النسيان • ومدفناً لمجد الزمان . وظلالاً تجلب الاحزان • وعبرة بليغة للانسان • وهي . وان كانت كذلك . بهجة للناظرين • ومصدر وحي لارباب الفنون والمتفننين • ولكن الذكرى – فيالله من ذكرى تقبض على النفس فتجعلها كالجماد • لله من اثار تبتهج لمرآها العين فيذوب لمعناها الفؤاد • لله من بلد تغنت بمكارمه كل بلاد • لله من عزك يابن امية • ومن مجدك يابن عباد • اي عبـد الرحمن والمنصور والمعتمد • من شادوا معاهد العلم والدين • لقد طالما اهـتزت النفس لذكر مآثركم وطالما وقفت العـين شغفاً عند اسماءكم في التاريخ • ولقد طالما تاقت النفس مني والعين الى مشاهدة ما تبقى

من تلك الاثار المجيدة • وها قد استجيبت طلبتي وتحقق اكبر اماني • فقد وطأت ارضاً عطرتها شمائل العرب • وجلت بلاداً عمرتها همم العرب • ووقفت امام عروش هدمتها عصبية العرب •

سررت اني فزت بهرب من العيد • فرحت كالهائم انشد تحف النسيان • بل مخبئات الزمان • وما البادي من اثر غير غلاف لكنز مكنون • يستخرجه العلم • وتجلوه الفنون • فمن قصر الى برج • ومن برج الى طلل • ومن طلل الى متحف • سرت كالهائم الولهان • نسيت العيد في القريب البعيد من الماضي المجيد • فمن ال « هرلدا » اي المأذنة التي شادها المهندس جابر للخليفة يوسف بن يعقوب • الى برج الذهب الذي شاده ابن العلاء على ضفة وادي الكبير • ومن البرج الى القصر الذي لم يزل فيه زاوية عامرة يقيم فيها ملك الاسبان عندما يؤم اشبيليه • ومن القصر الى المتحف وفيه من اثار الفنون والعلم ما يدهش حتى اربابها • هذه ابواب خلاص من الاعياد • • ولكن الفرح بالخلاص لا يلبث ان يزول • فيحل محله كآبة شديدة الوقع تكاد تشابه حزن الحبيب في فراق الحبيب • وفي مشاهدة الطلول والاثار يسترسل المرء الرقيق الشعور الى مثل هذه العواطف • وقد كمن فيها شبه سرور لا يصانَع فيه • ومتى تكاثرت الاحزان واشتدت يقام لها عيد في القلب • فيضحك صاحبها وهو يبكي • ويردد الالحان وهو ينوح •

وقفت في تلك المأذنة القائمة الى جانب كاتـدرائية اشبيليا وهي اعظم كنيسة في اوروبا خلا كـيسة القديس بطرس في رومية فانكشفت تحت عيني مدينة هي شرقية بل غربية في سطوحها البيضاء . وجاداتها العوجاء . وعرصاتها الخضراء . ومصاطبها الحافلة بالفل والقرنفل والمردكوش . واهلها السائرون في الاسواق كأن لا شغل لهم غير شم النسيم وقطف الزهور . فتراءى لي العيد ثانية كانه يقول . لا مهرب لك مني وانت في هذه البـلاد . فحولت نظري الى القصر وبستانه الفسيح الجميل . ثم الى البرج على ضفة نهر الكبير . فساح بي الفكر الى الشام . الى الكوفة . الى الحجاز . الى الحرمين . جالت بي الاحلام فادنتني من مجد العرب الغابر بل مثلته حياً امامي .

عرب الاندلس . عرب الشام . عرب بغداد . عرب الهند . أيعرف بعضهم بعضاً اليوم اذا اجتمعوا في نجد مثلاً او في الحجاز ؟ واي صلة تصل بين بني عباد في اوج مجدهم وبني امية . وبين بني العباس . وبني بير المغول بل اي صلة تصلهم كلهم بعرب الجزيرة ؟ واية من تلك الدول العظيمة الهائلة يدرك سرها اليوم في اليمن مثلاً . وتحترم شارتها . ويؤمن بتجديد عزها ؟ اليس للعرب ما يظهر من الفكر نيراً الا اذا احتك بافكار بعيدة غريبة ؟ أوَ لا يثمر النبوغ العربي الا اذا لقح ببوغ اجنبي ؟ هل الفضل او جله ببغداد للبرامكة . وبالشام وبيزنطية للرومان . وبالاندلس

للفرنجة · وبسمرقند للعجم · وبكشمير للهنود ؟ فما السبب اذاً في مجد شاده اولئك العرب الاماجد خارج الجزيرة ؟ وما السبب في قصر عهده واضمحلاله ؟

٢

زرت الاندلس حاجا . لا باحثا منقبا . وعدت منها وفي نفسي بهجة من شاهد اجمل ما في الاثار . وحدّث افضل من في الديار . ولا فخر في ما اقول . انما هي الصدف ان شئت ان تدعوها كذلك . او الجواذب النفسية ان كنت تعتقد بغير الجاذب الكائن في الاثير . وهاك القصة .

بعد ان شاهدت ما في اشبيليا من الاثار العربية والافرنجية ايضاً . واصبحت في محشر من الاعياد . قلت في نفسي : الهرب راس الحكمة . فسافرت الى غرناطة . قاعدة الدنيا في ذلك الزمان . وحاضرة السلطان . وقبة العدل والاحسان . واقمت في القصبة الحمراء اسبوعاً وددت لو كان اشهرا · وكان قصدي ان اقيم ثلاثة اسابيع · لولا دف العيد وزمره ·

فقد صدف ان زيارتي كانت في الربيع ولم يكن اهل غرناطة ليقيموا بعد مهرجان ايار · عيد الاندلس العظيم · وهو شبيه بعيد النيروز عند العجم والعرب . وقد يكون أخذ عنهم · وكنت

شاهدت في اشبيليا فاتحة ذا المهرجان الذي يدوم شهراً كاملاً . وهربت منه كما قلت . ولكن الويل للهاربين . فها انه لحقني بخيله ورجله . بخيامه ونوباته ومشعوذيه . باعلامه وراقصاته واغانيه . وما كنت من النادمين انتفع بالتجارب المكربة فأسد بالقطن اذني واعتصم بالقصبة. بل هربت ثانية.تركت الحمراء وقصورها. وحيطانها الحافلة بجيد الشعر في مدح ملوكها . وذكر مجالسها . ووصف جناتها وبركاتها .

« اعجب شيء حادث او قديم مربض الاسد ببيت النعيم »

وسافرت الى قرطبة . مسقط راس ابن رشد ابي الوليد . لاشاهد فيها الجامع الكبير . الذي شيد في عهد عبد الرحمن الاول مسجداً صغيراً . فنشأ والدولة نشوءاً طبيعياً . اذ اضاف اليه خلفاء عبد الرحمن الاربعة اقساماً كبيرة . زادت بفخامته وجماله . وهو اليوم كنيسة قائمة على عمد الجامع القديم التي تتجاوز الالف عدا .

وصلت الى قرطبة مساء . وانا احمد الله على خلاصي من المهرجان . لكني ما كدت انزل من عربة السكة الا ورب العيد والاغاريد . والكابوس العيد . . لا . لا . هي اصداء من غرناطة لم تزل ترن في اذني . دخلت المدينة مستعوذاً مستسلماً . فاذا بالاصداء وقد تعاظمت . وبالاصوات وقد تضاعفت وتعددت وتجددت وترددت . لها غنات ولها هدير . غريبة الالحان والاغاني

والضوضاء . وقد ملأت الفضاء وحيرت حتى السماء . فلا زئير الاسد وقد خالطها صفير البلابل يشابهها . ولا نهيق الحمير بين صياح الديوك وعجيج الثيران . ولاصدى المدافع وقد تخللهانعيق البوم وعواء الثعالب . ولا الابواق وقد نفخت فيها القرود . ولا الدفوف في ايدي الجنود السود . بل كلها اجتمعت في قرطبة ضجيجاً . وتصاعدت عجيجاً . كأنها الحان من الجحيم . اصيبت بمغص اليم . سددت اذني مستغفراً الله مسترحماً . فاذا بصوت يهمس فيها : يا هارب . يا جبان . هي نوبات المهرجان .

« عيد باية حال عدت يا عيد » . . . ألا مهرب منك في بلاد الاندلس ؟ الا ملجأ للغريب فيها من نعيمك وخمرك . وطبلك وزمرك ؟ وقد زاد في الطين بلة ان المنازل والفنادق بسبب هذا العيد المبارك . كانت كلها ملآنة . لا غرفة . ولا فرشة . ولا مسند فيها . لا لغريب ولا لنسيب .

فبعد ان جلنا المدينة كلها او ما تلألأ بالانوار منها واجرة العربة تصعد كالزئبق في تموز . والدليل ترجماني يحرك يديه . ويهز كتفيه . شاكياً اسفاً . بل خجلاً من ضيق بلده في وجه الزائر الكريم . وقفنا عند بوابة كبيرة الى جانبها مصباح صغير ضئيل . فترجل الدليل وقال كمن انزل عليه الوحي : « انزل يا (سنيور) انزل . ساخذك الى بيت عمي وهو بيت يليق بك »

فنزلت والحقيبة بيدي . وكذلك قلبي . فمشيت وراءه وكان

المصباح عند الباب اخر عهدي انئذ بالنور. مشينا في زقاق ضيق، لا يمكن ان يقع السائر فيه لقرب حيطيه الواحد من الاخر — الا اذا وقع على وجهه او ظهره — ومنه الى ساحة منّ عليها ببعض النور مصباحٌ في شباك مفتوح • فتنفست الصعداء • ولكننا لم ندخل الساحة الا لنخرج منها الى شبه جادة فيها شبه قنديل ظننته لبعده بصيص الحباحب ولم نصل اليه لاتحقق ظني • بل سرنا يميناً ثم شمالاً الى زقاق اخر مظلم • وقف الدليل فيه وهلة وقال : اعطني يدك • فانزلني درجاً درجاته مثل دكات لبنان متهدمة • وهو يقول : لا تخف وصلنا • وانا اقول في نفسي : ان رأيه غريب • في ما يليق بالغريب • ايقيم عمه تحت الارض يا ترى ؟

نزلنا الدرج دون حادث يستوجب عناية طبيب • فانبسطت امامنا طريق شع فيها ما كنا نسيناه من حقيقة النور • فمشينا توّا مسرعين • فاذا هنالك مصباح لا ريب فيه فوق باب مفتوح • دخلناه كأنه باب الجنة • وسرنا الى فناء الدار • وهي عامرة بالانوار • وفيها اقفاص تغرد فيها الطيور • ومستنبتات نوّرت فيها انواع الزهور • ولكن الدار خالية من الانس • وقد كان اهلها في المدينة يعيدون • ما سوى رب البيت • وهو شيخ جليل • جاء يتأهل بالغريب وبالدليل •

تكلم الدليل فابتسم الشيخ نسيبه • وسار وهو يشير ان

اتبعه • فادخلني غرفة صغيرة • لا نافذة فيها ولا شباك • الا ان في بابها • وهو قبالة الحوض في الفناء • ثقوباً تؤذن بتجديد الهواء • وبصوت خرير الماء • وبعد المساومة — لا ضيافة في الاندلس اليوم — سألني الشيخ عن اصلي • فقلت عربي • فهش وبش • ونادى نسيبه • وهو يشير الى قلبه ويقول : كلنا هنا عرب • الا انه تقاضاني اجرة الغرفة ثلاثة اضعاف اكراماً للعيد • وقبض القيمة سلفاً اكراماً • على ما اظن • للعرب •

وبعد حديث كان الترجمان صلته • علمت ان الشيخ ممن يعجبون جداً بعرب الاندلس • وان كان لا يعرف للضيافة معنى • ويعرف للمال الف معنى • فهو في هذا مثل كل الاسبان بل مثل اكثر الاوربيين اليوم • وهو من القليلين في الاندلس الذين يفرقون بين العرب والمغاربة • او بين من جاء من بر الشام ومن جاء من افريقية • فلا يقول : « مورو » اذا اراد ان يقول : عربي • والعكس بالعكس • وهو يفضل الامويين على سواهم • ويعجب بما كان لقرطبة في عهدهم من الشهرة والمنزلة في العلوم والفنون • وقد اخبرني ايضاً ان له ولعا في درس الاثار • وبالاخص اثار قرطبة العربية • ودلني الى بيوت في المدينة • لا ذكر لها في كتاب الدليل حيث تُشاهد فيها امثال نادرة من البلاط الزليجي • اي المزجج المذهب •

ولم يخطر في بال الشيخ • وكان قد اطلق للسان العنان ان قد

اكون تعباً • نعساً • من السفر والضجر • فقد سر ولا شك بغريب الصدفة • فاسترسل في سروره • ودعاني الى ردهة الاستقبال ليريني فيها اثرًا جميلاً . اثرًا مدهشاً • وحقاً اني انتعشت حالاً بما شاهدت • فتجددت فيَّ الرغبة بالسهر والحديث • كيف لا • والاثر عربي • ذكرني بما قرأته مرة عن احد الاولياء • وكان قد مر بالزهراء • قصر المنصور • الذي

« نسي الصبيح مع الفصيح بذكره وسما ففاق خورنقا وسديرا »

فقال الولي : « يا دار فيك من كل دار • فجعل الله منك في كل دار • » ولم يكن بعد دعوته الا ايام يسيرة حتى « نهبت ذخائرها • وعم الخراب سائرها »

وهاك اثر جميل من ذاك الخراب • في تلك الردهة الاوربية الفرش والبناء • على حيطانها الاربعة • زنار من البلاط الزليجي منقوش فيه – بسم الله الرحمن الرحيم • والحمد لله على نعمة الاسلام • وكذلك نتف من الشعر مفككة الالفاظ • مقطعة المعنى • سألني الشيخ قراءتها وترجمتها • ففعلت طاقتي • فهز رأسه ان قال تمام • وسر جدًا ثم قال : وعندي اثر اخر يدهشك . وحمل القنديل الذي كان على الرف • وخرج من البيت يتقدمنا الى زقاق خارج الدار • وهناك • في حيط ظاهره قديم • حجر منقوش فيه « رشد » وقد كاد يمحو تلك الاحرف الزمان • فقرأتها • مدهوشاً • فهز الشيخ رأسه وقال : لا شك عندي ان

هذا بيت آفِرّوس (اي ابن رشد) الذي كان يعلم الفلسفة في كلية قرطبة ٠

والاغلب ان بيت الفيلسوف مثل سائر بيوت كبار المسلمين قديماً . اصيب بما اصيبت به قصور السلاطين . فتبعثرت حجارته . ورست في ذا الجدار بعضها ٠ ولكني لم احاول ان ازعزع رأي سيدي الشيخ او افسد ظناً له فيه فخر وسرور ٠ فقلت : وهل هذه الدار قديمة ٠ فقال : الغرفة التي تنام فيها هي اقدم ما في الدار بناء ٠ وهذا الحائط من حيطانها ٠

عدت الى غرفتي وانا لا ادري اني درت مع الشيخ حولها . فدخلتها والدهشة تملك نفسي . والهواجس تتجاذب الفكر مني والخيال . نعم . ان ما شاهدته لتافه جدًا بالنسبة الى الفخامة والعظمة في قصور اشبيليا وغرناطة . ولكن العين لا ترى ما تراه النفس ٠ وقلما تحسب للرؤيا حساباً ٠ ان حجراً منقوشة فيه ثلاثة احرف عربية لشبه نافذة في غرفة صغيرة ارتني بل قربت مني ذلك العهد القديم المجيد ٠

وما المانع ان يكون هذا البيت بيت ابن رشد ؟ او هو على الاقل في الحي الذي اقام فيه . بل في مركز بيته الاصلي بالذات وما المانع ان تكون هذه الغرفة وهندستها عربية غرفة ابن رشد الخصوصية ؟ اضغاث احلام . قد يكون الحجر من حجارة قبر ابن رشد . فالافرنجة هدموا وبعثروا حتى قبور المسلمين . اعترتني

الرعشة من ذي الذكرى . فاستعذت منها بغيرها . قد يكون هذا الاثر من الكلية التي كان يعلم فيها . حسن . وقد يكون من نصب اقيم له بعد موته . هذا احسن . وان كان لا يثبته التاريخ

في كل حال وجدت نفسي تلك الليلة في دار لم تزل الروح العربية حية فيها . تلك الروح الخالدة في الشعر وفي العلم وفي الفنون . تلك الروح الحافلة بمصابيح من النور كابن رشد . والادريسي . وابن العوام ابي ذكريا . والخلف ابي القاسم . وابن زيدون . وابن الخطيب . واصحاب الموشحات وغيرهم من نوابغ الاندلس .

وها ان اثارهم امست في كل دار من دور اعدائهم الفرنجة ، وهم او ابناؤهم اليوم من اشد المعجبين بهم . ففي قلب الاندلس روح العرب خالدة . ولكن ملكا شيدوه امسى اثرًا من الاثار . ومجدًا اقاموه استحال طللاً من الاطلال . ومعاهد علم اسسوها لم يبق منها حجر على حجر . الا ما استقر . بعد انفجار بركان التعصب . في حائط جديد . او في بيت حقير مجهول .

فما السبب يا ترى في سقوط ذلك الملك الذي شعت انواره في ظلمات اوروبا كنجوم البادية في الدجى ؟ وما السبب في اضمحلال اركانه واصوله ؟ ما السبب في زوال مجده . وفي قصر امله وعهده ؟

اقفلت الباب ونزعت ثيابي وانا هدف لمثل ذي السؤالات . ثم اطفأت الشمعة وسرت الى السرير هائج النفس . اعللها بالنوم.

ولكني توسدت الارق . وانا اسمع خرير الماء في فناء الدار . وارى منعكساً على الحائط نقطاً من النور الذي دخل مكسراً من ثقوب الباب . وما هي الا هنيهة حتى بدأت تلك النقط تمتد فاتصل بعضها ببعض واصبحت كالدائرة وهي ترتج وتتحرك على الحائط . نهضت من السرير لارى ما في الدار . او من فيها . فتحت الباب وخرجت مستكشفاً فاذا هناك مستنبتات الزهور والناذروان والاقفاص والعصافير فيها نائمة . ولا نور غير ما يشع من المصباح في الايوان . عدت الى غرفتي . وانا اظن ان ما بدا لي انما هو وهم مني او خدعة البصر كما يقال . فاذا بالنور . بعد ان اقفلت الباب قد احاط بالكرسي كالهالة واستحال دفعة واحدة شخصاً هيولياً . بل رأيت جالساً امامي شيخاً جليلاً يشبه الشيخ صاحب البيت الا انه لابس جبة وعمامة

ذعرت لاول وهلة وهممت بالخروج . فسارع مطمئناً وقال باللغة العربية : السلام عليكم . فقلت : ورحمة الله وبركاته . ايتفضل سيدي الشيخ باسمه الكريم . فقال : ابن رشد يدعو لكم بالخير وطول البقاء .

— ابو الوليد ؟

— ابو الوليد ابن رشد بعينه .

— ولمَ استحققت من فضلكم ذي الزيارة

— فكرت يا ريحاني . وحرت . وسألت . فجئت اجلو

فكرك • وازيل حيرتك . واجيب سؤالك •

– غمرتني والله بفضلك •

– الفضل لذويه ارباب الفكر والرؤيا • ولست اليوم منهم قال ذلك وهو يهز برأسه كمن تهيجه فتؤلمه الذكرى •

– ولكن زيتك يا سيدي لم يزل يحرق في مصابيحهم •

– نعم في مصابيح الفرنجة • لا مصابيح العرب • والسبب في ذلك ان قد امتزج بزيتنا شيءٌ من الماء • كثير من الماء • ولم يحسن العرب تصفيته مثل الفرنجة • اجل • قد خالط علومنا كثير من الخرافات والتقاليد والاوهام • نظرنا الى العالم خلال ستار هو الاسلام • كان شفافاً باهراً في الاحايين كحالة قرطبة في عهد بعض الامويين • فتراءت لنا اشياء من حقيقة الوجود والكون طلية بعضها . وبعضها غامضة او مقطعة . فاستخدمنا منها ما استطعنا . واهملنا منها كرهاً احياناً . وجهلا في الاحايين . ما خالف قواعد الدين . لا يخدعنك ما تقرأه في التاريخ عن تساهل الخلفاء في الاندلس وحلمهم . فانهم ما خلا اثنين او ثلاثة آثروا الملك على العلم . والسيادة المطلقة على الحرية والعدل . وكان اكثر العلماء والشعراء يأتمرون بامرهم ويتزلفون اليهم . فجاء علمهم ناقصاً بل مزيجاً من العلم والخرافة والخيال . وكان الفيلسوف الحقيقي مكروهاً فجارى حيناً . ودارى احياناً . اتقاء سيادة مطلقة . جائرة . عمياء . ولا شك انك تعلم ما كان من احراق

الكتب في هذه المدينة في عهد المنصور . ثم في عهد اولئك البرابرة المرابطين . حتى ان احد قضاة قرطبة . ولا اشرّف بالذكر اسمه . اصدر فتواه باحراق كتب الغزالي . وحرّم قراءة (احياء العلوم والدين) مع ان الغزالي من اكبر المزّاجين . هذا احد الاسباب في سقوط الملك العربي في الاندلس .

وهنالك اسباب اخرى منها ما ذكره عرضاً المؤرخون . فاذكر رعاك الله ان في اوائل الفتح . اي منذ دخول طارق الى مجيء عبد الرحمن الاموي . كان الخليفة في الشام يعين عامله على الاندلس حيناً . وحيناً يجيز لوالي افريقية ان يعين من يريد من رجاله . فكان العامل تارة من قبل الخليفة راساً . وطوراً من قبل واليه في افريقية وطوراً من قبل نفسه . وهذا ما مكّن في الطامعين بالملك روح القومية او العصبية . وهي جرثومة خطل جاءت من الشام . فنخرت في عرش السلطان فزعزعته ثم هدمته . فلا الدين . ولا اللغة . ولا الخطوب السياسية . ازالت شيئاً من العصبية او لطفت في الاقل سورتها . وقد كنا في ذلك الزمان نظن ان لا خير في العصبية التي لا تكون اللغة او الدين ركناً من اركانها . لا خير فيها لشعب ناهض . نشيط . طامع بالسيادة والاستيلاء . ولكننا نعلم اليوم ان الاديان في الملك كالقبائل في البادية . تولد تلك الروح الخبيثة المحدودة النظر والغاية . تلك الروح التي لا ترى في غير شؤونها . وفي غير ايمانها . وفي غير

عاداتها وتقاليدها . وبكلمة . في غير دائرتها المحدودة الصغيرة . ما يستحق الذكر والاهتمام . بل ما يستحق غير الازدراء والكره والذم والاضطهاد . فلا خير في العصبية دينية كانت او جنسية .

— وهل يرى سيدي الاستاذ خيراً في عصبية كبرى تجمع بين عصبيات اكثر الناطقين بالضاد مثلاً ؟

— اذا كان ذلك ممكناً فهو غير مستحسن اليوم وغير مفيد بل قد يضر ضرراً جسيماً . ففي ضخامة الملك العربي استبداد (قابل بين حكم الخلفاء الراشدين وبين بني العباس مثلاً او بني امية) وفي الاستبداد جهل . وفي الجهل حيف على العلم والعلماء . ذلك لان العرب بل المسلمين لم يزالوا في دائرة من الدين ضيقة . لا يخترق النور من الخارج او من الداخل حدودها الكثيفة . واميرهم العالم العامل بعلمه لا يرضي العامة . واميرهم الجاهل لا يرضي الخاصة المفكرة . فلا يستطيع والحال هذه الحكم الا بالقوة القاهرة . والقوة القاهرة عيب وظلم قبيح في هذا الزمان

قلت : وهل لعرب الجزيرة امل بالترقي والتمدين ؟

فقال : لا امل ما زالت العصبية اساس اعمالهم السياسية والدينية . فالعصبية من اهم الاسباب في سقوط العرب في الاندلس . وفي الشام . وفي العراق . وفي الهند . قد جاؤوا هذه البلاد مثلاً ومعهم نزعاتهم اليمنية والمضرية . والعبسية والشامية . وما مر عشرون سنة عليهم حتى اشتعلت الحرب بين قحطان ومضر

وكانت اول حرب اهلية في الاندلس . واخذت هذه الروح روح العصبية تمتد بامتداد الملك . فكان ملكاً واهياً مترعزعاً . تفككت اوصاله . واستقل بالحكم رجاله. فكان في (المرية) ملك . وفي (مرسيا) اخر . وفي غرناطة سلطان . واخر في (اشبيليا) . وهم يتقاطعون ويتطاحنون . فجاء يوسف بن تاشفين البربري فاغتنم فرصة خلافهم ونزاعهم فساد . ثم اعترى قوم يوسف ما اعترى سلفاؤه فاستعان اهل البلاد ببعضهم على بعض فتغلبوا عليهم وسادوا . وكذلك كان في دولة المغول في الهند . فان نزعاتهم القومية تغلبت عليهم فمهدت السبيل لتغلب امراء الهند على ملكهم العظيم القصير العهد .

واطرق الشيخ عندئذ ثم قال :

ان للعرب فضلاً لا ينكر وان بالغ الناس بذكره . وقد سمعتك تسائل نفسك سوالات يشتم منها نكران هذا الفضل . انت مصيب في قولك ان نبوغ العرب قلما يثمر الا اذا احتك بنبوغ اجنبي . ولكن هذا الاحتكاك لم يذهب بمزية النبوغ العربية . بل اظهرها جلية . قوية . نيرة . مشعشعة . فاختفت في نورها الباهر مزية النبوغ الاجنبي . اختفت ولا عجب الى حين . لان نور العرب شديد الاحتراق . جميل الاشعة . سريع الانطفاء . ولكن الصبغة العربية او مزية النبوغ الخاصة بالعرب انما هي ثابتة في الصناعات والفنون . فاذا كان للرومان فضل في تدمر

ولبيظنطية فضل في الشام . ولبني ساسان والبرامكة فضل في بغداد . وللفرنجة فضل في قرطبة . وللهنود فضل في كابول . فذلك لان النبوغ العربي بعث ما دفن من علومهم وفنونهم . فاضاءها واحياها . واعاد الى مدنياتهم مجدها . وقد تجلبب جلباباً عربياً فخيماً . وبكلمة اخرى . ان النبوغ العربي استولى في الماضي على النبوغ الاجنبي فاستخدمه وانتفع به . وهو اليوم واقف بين قوات من النبوغ الاوروبي عظيمة لا يستطيع الاستيلاء عليها .

— وهل يستطيع الانتفاع بها مع حفظ المزية العربية فيه ؟

— نعم . اذا كان العرب يدركون اسباب سقوطهم في الماضي فيتقونها . ويجتنبونها .

— وهل لسيدي الشيخ ان يذكر غير ما ذكر من اسباب السقوط ؟

— قد اشرت الى العصبية الدينية فازيدك ايضاحاً . واعلم رعاك الله اني اتكلم الان كمسلم . وان كنا في العالم الخالد مجردين تماماً من صبغات الاديان كلها . اتكلم الان كمسلم لاني لم ازل اذكر القوم الذي كان الجسد منهم واقام بينهم فترة من الزمان . ولم ازل انظر الى تلك الذاتية — الذاتية الاسلامية . الذاتية الفانية . كمن ينظر الى خيال الحبيب في بحيرة الذكرى . على اني لو عدت اليوم الى بلد الحبيب فلا اظنني اكون من الراغبين به . الناظرين اليه

بعـين الاعجاب . لا يدهشنك ما اقول . فان الاسلام اليوم لم يزل كما كان يوم كنت اعلم الفلسفة في كلية قرطبة اسلامـاً في الدين . واسلاماً في السياسية . واسلاماً في الاجتماع . وان النبي محمداً لاول من شاد العصبية العربية على هذه الاركان الثلاثة . فكان منها ان الخليفة رفع صولجانه فوق الارض ومـده الى السموات . وفي تقليـده السلطتين السياسية والروحية افسدت الواحدة واسي. استخدام الاخرى . وهذا الخلط في الاحكام . مثل الخلط في العلوم يبدو القبيح فيه اولاً فينمو سريعاً فيفسد الصحيح . والغريب العجيب انه لم يقم في الاسلام حتى الان من اشار اشارة الى ان النبي محمداً . لو سئل في ذا الخلط . لما كان عنه اليوم راضياً .

قلت : وهل يرى فضيلة الشيخ في كنه الدين خلاصاً للناس من صبغات الاديان وسيادات الدنيا الدينية ؟

فقال : ان نظر الانسان محـدود . وكذلك نظر الارواح . على ان افقنا اوسع جداً من افاق الاحياء حتى الصالحـين منهم المقربين . فالمسافة بين جرم واخر عندنا كالفرسخ مثلاً عندكم . ويصح هذا القياس في المعنويات ايضاً . لذلك اقول . اجابـة سؤالك . ان كل ما ظهر في العالم حتى اليوم من حقائق الدين والسياسة والاجتماع انما هو خاضع لناموس التحول والانقلاب . وان شئت قل ناموس النشوء والارتقاء . وهذا الناموس صحيح

قويم في الطبيعيات .وفي الاجتماعيـات وفي الروحيات ايضاً – صحيح قويم على قدر ما نرى الان • وقـد يسلك بنو الارض وكل حي فيها سبيله الفاً بل الوفاً من السنين فيصلون اذ ذاك الى حيث ينتهي سبيل النشوء • ويبتدىء سبيل اخر قـد يكون اوسع منه واطول • وبكلمة اخرى • ان الله ،سبحانه لا يكشف لسكان الارض من اسرار الوجود الا ما كان موافقاً لحال الانسان الروحية والمادية • وان كشف الستار يكون بالنسبة الى الرقي في الحالين • وبكلمة اوضح • انه تعالى مقيم الحدود وعالم بها • فلا يقدم لكم في الارض من حقائقه دفعة واحـدة الا ما تستطيعون هضمه واقتباسه • فلو علمتم مثلاً ما قد يكون حال البشر بعد الف سنة لما كنتم بذا العلم راضين • سر او اساء • لانه اذا انبئتم بحال احسن كرهتم ما انتم فيه وسئمتم الصبر عليه • واذا انبئتم بسوء المستقبل اسأتم الى الحاضر في استرسالكم الى الشهوات واللذات فتفسدون حسناته الحقيقية على قلتها ففي كلتا الحالتين اذن لا تكون النتيجة حسنة ولا تكونون اذا تبصرتم راضين • وحالنا نحن في عالم الارواح شبيه نوعاً بحالكم • الا ان حدود الادراك عندنا ابعد جـداً من حدودكم • لذلك اقول ان ناموس النشوء والارتقاء اليوم امامكم وحولكم وفوقكم وفيكم • فادرسوه • وافقهوه • وانتفعوا به • ولا تمددوا ايديكم الى الستار ستار الاسرار • اذا رأيتموه يتحرك • بل كونوا متيقظين • متبصرين •

راغبين بكل مظهر من مظاهر الحقيقة والوجود • تائقين اليها •
وانبذوا من ثمار البارح ما لا يليق بمائدة اليوم . والسلام عليكم .

وما كاد ينهي كلامه حتى زال النور دفعة واحدة . الا نقطاً
كانت تهتز فوق كرسي فارغ . وقد انعكست على الحائط خلال
الثقوب في الباب •



تاريخ سوريا

في معجم ياقوت وجغرافية اسطرابون ودليل السياح شيء من تاريخ نهر الكلب واشياء من اساطيره المستغربة . وفي اثر مشهور هناك خلاصة تاريخ سوريا القديم والحديث . خطته يد الزمان على فم المضيق الذي اذل ملوك الارض وسمع صليل الرماح لجيوش مصر وبابل وآشور . وهناك ايضاً من آثار الطرق والاقنية الرومانية . ومن الكتابات الفينيقية والمسمارية واللاتينية . ومن رسوم للملوك والآلهة منقوشة في الصخور . ما يهم علماء الاثار فيجيئون من اقاصي البلاد ليحلوا رموزها ويكشفوا اسرارها . وهي تلذ للسياح فيزورونها ويكبرونها ولا يفهمون منها سوى ما يردده الترجمان والدليل . اما كاتب هذه السطور وهو لبنانيٌ ابن اليوم فلا يهمه من اخبار الماضي واثاره الا ما ينير منها ظلمات زماننا الحاضر . فقد زار نهر الكلب اول مرة ووقف عند اثاره وكتاباته كسائر السياح دون ان يحل شيئاً من رموزها غير ما يحله الكتاب والدليل . واكثر السياح . وكاتب هذه الاسطر كان يومئذ من الاكثرية . يتطلعون الى الاطلال والانصاب تطلع العير الى القمر . ولكنه كفر عن زيارته

الاولى بزيارة ثانية فراقه من جميل الازهار وطيب النبات حول آثار النهر القديمة . ومن فصاحة المشهد الطبيعي فوقها . ما لا يستطيع قراءته غير الشاعر ولا يحل رموزه غير الله .

وبالقرب من النهر شمالاً قد شاهد وهو عائد الى بيروت اثراً يعني السوري كونه حماراً او عالماً او شاعراً او اجيراً. اثراً حديثاً يذكره بماضي بلاده البعيد وبماضيها القريب . ولا فرق يذكر بين الاثنين . اجل . ان في ذا الاثر تاريخ سوريا القديم والحديث . سوريا سبية الامم . سوريا أمة الشرق والغرب . سوريا نهب الملوك الفاتحين . سوريا حاملة نير الاجانب والغرباء . لقد كتب شلمنصر سفراً من تاريخك ما بقي منه غير اثر طمسه الزمان . ثم جاء رعمسيس واوريليوس وانطونيوس وبلدوين وسليم الفاتح فكتبت سيوف جيوشهم اسفاراً . ولم يبق منها غير ما يهم الاثريين والسياح .

سوريا . امي . أيكتب تاريخك بسنابك الخيل وبرماح الفرسان . فيمحي جيش اليوم ما خطه جيش الامس . ويمزق جيش الغد ما سطره جيش اليوم ؟

بالقرب من فم النهر شمالاً . في صفيحة نُقش عليها . فوق ما نقشه الاشوريون والمصريون والرومان . ذكرُ الحملة الافرنسية التي دخلت بلادنا في سنة ١٨٦٠ يقرأ الزائر تلك الآثار خلاصة تاريخ سوريا القديم والحديث . فمن نبوكدنصر الى مرقص

اوريليوس الى السلطان سليم الى نبوليون الثالث [1] فصول طوال اختصرتها جيوش مصر وآشور . وسودتها جيوش الترك . وعلقت عليها جيوش الفرنسيس حاشية صغيرة مهمة . سوريا سبية الامم متى تعتقين ؟ سوريا امة الشرق والغرب متى تنهضين ؟

سوريا . امي . متى يكتب ابناؤك اول صفحة من تاريخك الجديد ؟

(١) وقد تعددت في سنة واحدة من زماننا ايدي المقلدين . فكتبوا في تلك الصفيحة ثلاثة فصول جديدة بلغات ثلاث — الافرنسية والانكليزية والعربية — تذكر الزائر ببابل بل تحبب ذاك العهد اليه .

الاشجار الناطقة

في احراج كاليفرنيا من ولايات اميركا المتحدة اشجار تفوق ارز لبنان قدماً و كبراً ٠ وقد حفرت في جذوعها طرق كانها انفاق تمر فيها العربات ٠ هذا دليل واحد على ضخامتها المدهشة ٠ والدليل على قدمها ظاهر في بقايا الجذوع المتحجرة في تلك الاحراج ٠ ولكن اشجار كاليفرنيا وهي من عجائب الدنيا انما هي جماد هائل لا سر فيها ولا معنى لها ٠ هي عظيمة ولكنها صماء بكماء ٠ هي قديمة ولكنها عقيمة لا قصة لها ولا تاريخ ٠ لم يمش في ظلها نبي ولا تغزل بها شاعر ٠ كانت تظلل البربري ووحش الغاب ٠ وما عند مثل هؤلاء شيء من الفكر والشعور ليزرعه حولها ٠ ان عظمة تلك الاشجار مادية محض وشهرتها لا تتجاوز بلادها وعلم العلماء والسياح ٠

اما شجر الارز وغيره من الاشجار المقدسة كالبو عند الهنود والسدر عند المسلمين ففيها غير الظاهر من الضخامة والعظمة ٠ فيها غير المادة ٠ ان للارزة صوتاً لا يتلاشى وان صارت هي الى الفناء ٠ الارز من الاشجار الناطقة بسر من اسرار التاريخ بل من اسرار النفس البشرية ٠

فما السر يا ترى في القداسة التي تنمو في هذه الاشجار فتزيد قدمها جلالاً وعظمتها جمالاً ؟ أعبثاً يمزج الانسان شيئاً من نفسه

واماله بشيء من التراب والشمس والماء والهواء ؟

ان كان كذلك فما هو اذًا ذاك الخيال الذي يسمعني في حفيف غصون الارز صوت مليك اورشليم وبنيها ؟ ما هو الاتصال السري بين روح الاشجار وروح الشعراء والاتقياء من الناس ؟ لا اتعمد الغموض في ما اقول . ولكنه يخيل لي ان بذرة من بذور الايمان ونقطة من ينبوع الحب تقعان من يد الانسان وقلبه عند اصول شجرة يقدسها فتختلطان واياها . فتنموان في غصونها . وتنوران في زهرها . وتثمران في ثمارها . وتتصاعدان بخوراً في صحفها . واحياناً تحرض في قطرها وتسوس في لبها .

الحب خالد . وللاشجار التي يخصها الانبياء والشعراء بحبهم روحٌ سامية خالدة . وان ارز لبنان لمن هاته الاشجار الحية الخالدة الناطقة بسر من اسرار الطبيعة والحياة . ان فيها شيئاً الهياً واشياء بشرية روحية .



اصوات السكينة

من المشاهد الطبيعية ما يستوقف القلب ومنها مايستوقف القلب والعقل معاً . ومشاهد لبنان المشهورة من هذه التي تحير الانسان فتعقل منه اللسان .

على كتف وادي قاديشا او عند مغارة افقا او في ظلال الارز يقف المرء ساكتاً خاشعاً مدهوشاً . ولا غروفان لهاته المشاهد الجليلة مزية معنوية فوق مزيتها الطبيعية المدهشة . اجل ان فيها من آثار تاريخ الانسان واديانه ومن تذكارات خرافاته واباطيله ما لا تمحوه يد الدهر ولا تدرسه السيول والاعاصير .

ومن هذه ما تراه عند مغارة افقا تحت جفن الجبل القائم حولها كقلعة من قلاع الفينيقيين . هناك آثار هيكل بناه الرومان للزهراء وشجرة جوز وارفة الظلال يقدسها المتاولة المقيمون اليوم في ذلك الوادي . وفوق هاته الشجرة وذاك الظل تخيم سكينة رهيبة عجيبة يتخللها نقيق الضفادع وتغريد الحساسين وحفيف اجنحة النسور . وهذه لعمري اصوات السكينة التي تُدفن فيها عقائد الانسان واضاليله .

كان الرومان في افقا وكانت الزهراء . كان الانسان في ذاك الزمان يعبد الجمال وكان الجمال ينبوع ملذات الانسان ومبراته . ومصدر ما تسامى من آدابه وفنونه . واليوم في افقا يوم التعاويذ

بل يوم اولياء الجوز والجميز ! اسفي على امرىء يـدب حول جذور الدين في قيود من الايمان ضد أي . فان ما بقي من ادراكه وامله لشبيه بتلك الرقاع البالية التي يعقدها في اغصان الجوزة ليقيه وليها من تصاريف الدهر و كوارث الزمان . رقعة بالية . على شجرة عالية . في ظل مغارة الجهل والخوف والغرور — أهذا ميراثك ياولي الجوزة ؟ ألا يسمعك الحسون شيئاً من نشيد عبّاد الزهراء ؟ وانت يا ربة الحب والجمال الا تسمعين في نقيق الضفادع بكاء عبّاد هذا الوادي ؟ أو لا تسمعين همس الحكمة الازلية في حفيف اجنحة النسور ؟

وقفت بين حجارة هيكلك عند الجوزة فرأيت حجراً كبيراً كأنه رأس صنم . في فمه وعينيه شيء من التراب وقد نبتت فيه ونوّرت ازهار العصفر البيضاء والصفراء . وسمعت الصنم يخاطب الجوزة فيقول : أجمل الرومانيات قبلنني وهذي ازهـار حبهن في فمي .

فقالت الجوزة : أعظم الكائنات عروسي . حجابها الربيع وجلبابها الصيف . وازهاري وثماري من نور حبها وحرارته .

فقال الصنم : ولكن الانسان يشوّه أغصانك برقاع خرافاته واباطيله .

فقالت الجوزة : اما انتَ فقد دنسك بغي الرومانيات وخلاعة الرومانيين .

فقال الصنم : ان نار الحب طاهرة مطهِّرة •

فقالت الجوزة : وان رقاع الايمان كفلس الارملة ...

فقاطعها الصنم قائلاً : بل هي كورق التين يستر بها الحارض من المؤمنين عورة ايمانه •

فعظم اذ ذاك هدير المغارة وسمعتها تقول : أفي باب أم النهر المقدس نهر ادونيس • ينبوع الحياة الدائمة • تفاخرون بما يشيده الانسان ويقدسه ؟

فاجابت الضفادع الناقّة : نعم • نعم •

وغرّدت الحساسين : لا • لا •

ومر النسر فوق جفن المغارة مسرعاً وهو يهمس بجناحيه كلمةً قل من ادرك سرها من الناس •



الشعر والشعراء

الشعراء اثنان شاعر قومه وزمانه . وشاعر العالم وكل زمان . الاول يندر في شعره ما يبقى شعرًا اذا ترجم الى لغة اجنبيــة . والثاني عكس الاول . وقد يجيء في شعر هذا ما هو من طبقة شاعر قومه وزمانه . وقد تعلو صناعته على قريحتــه في حالات للنفس يغلب فيها المكتسب على الفطري . وقد يكون الشاعر الاول بعيد الاشارة علوًا لا اتساعاً فينظر الى الاشياء والاكوان من ذروة سماؤها صافية ولكن افقها محدود صغير . كثير المضايق والسدود . فيرى اصول الاشياء ورؤوسها ولا يرى مـا تشعب وامتد من اطرافها . وشعراء العرب ما عدا الفارض والمعري من هذه الطبقة لان في شعرهم تغلب الصناعة الشاعرية الحقيقية . فيجيء ما ينظمونه شعراً عربياً فقط لا شعرًا على الاطلاق .

اما الفارض وابو العلاء فيكادا يعلوان على هذا . كل في طريقته . وما تقيدت النفس فيهما بظاهر الاشياء الزائــل اي بتقاليد القوم وروح الزمان . وقد يستغرب ذكري هذين الشاعرين كانهما صنوان وقد اختلفا طريقة ومذهباً . على انهما متشابهان عند من دقق النظر في شعرهما وحياتهما تشابهاً جوهرياً جديرًا

بالاعتبار . ففي شعر الاثنين ما لا يختص بامة واحدة من الامم او بزمن من الازمنة . بل هو جامع شامل . سماؤه بشرية لا عربية . وزمانه لاهجري ولا مسيحي . وفي حياة الشاعرين حيرة وورع يتناوبهما الشك واليقين فيعلو العقل في « رهين المحبسين » على النفس وتعلو النفس في شاعر السالكين على كل معقول ومحسوس . ويجوز لنا ان نقول ان ابا العلاء من المتصوفين في بعض حالاته كما ان الفارض في بعض اطواره من الماديين . شعر ابي العلاء كالموشور صاف . ولكنه بارد . تنعكس فيه حقيقة الحياة فتتلون . فتحرق . فتنير ما يعالجه من المواضيع . وشعر الفارض قبس من النفس نرى في لهيبه اشكال ازهار من الحب جميلة وطيور الفاظ تغرد حول عرش الاسرار .

وحقاً ما يقال ان الشعر من الشعور . ومن الشعور ما رق فسال . ودق فغمض . واشتد فاضطرم فاحرق فانار . ومن الشعور ما هو مكتسب ومنه ما هو فطري . فيغلب في الاول التصنع وفي الثاني الهوى او الهوس . وقد قال احد الفلاسفة : ان اول الهوس الشعر واحسن الشعر ما كان عن هوس وغرام . وعندي لا ينبغي ان يكون الشاعر . شاعر النفس . عاقلاً او فيلسوفاً . فالهوس او الهوى او النزعات الشديدة انما هي صوت النفس وتنهداتها فتشجي تارة وتطرب طوراً . وطوراً ترعج وتكرب . وفي كل حال ان نزعات النفس لهي ماء الشعر وغذاؤه وخمره .

وكل شعر بدونها خاسيء بارد مشحوب اللون عليل . وفي هذه النزعات الشديدة لا يخضع الشاعر لشيء من اشياء العقل العادية السطحية فتظهر في كل اقواله ونغماته في مظهر طيه الدعوى التي يظنها الشاعر من لوازم الصناعة . ومن واجبات النبوغ . وقد تشتد هذه النزعة في بعضهم حتى تصبح نوعاً من الجنون وتتشابه باطناً في من اختلفوا ظاهراً وشكلاً — فهوس الفارض بالاسرار يتغزل بغوامضها . مثل هوس ابي العلاء بالعقليات وتغزله بالفناء والاضمحلال . ومثل ورع ابي العتاهية حتى اصبح الورع في شعره نوعاً من الخبل . ولكن المبالغة طبيعة في الشاعر لان شعوره مجموع شعور الناس . وان جاز لنا ان نشبه المجتمع الانساني بجسم بشري يصح ان نشبه الشاعر بالجهاز العصبي لهذا الجسم المعنوي الحي . واكثر الشعراء من هذه الطبقة اي انهم شعراء قومهم وزمانهم .

اما الشاعر الكبير شاعر العالم وكل زمان فهو قلب العالم وعقله . فمن رقت شعوره هام كما يقال على وجهه او بالحري عام على وجه الاشياء فيتلهى بلطف اشكالها الظاهرة . ومن اشتدت شعوره غاص في قعر البحار فجاءنا بشيء من لؤلؤها ومرجانها . ومن دقت شعوره غمضت معانيه فشق في الظلمات حتى ينتهي عند انوار هي من النفس والفكر بمكان . لكل حقيقة شعاع اسود خفي . والشاعر الصميم من تمشى في ظلال الحقيقة فتتبع اشعتها

حتى النهاية فيكتشف حقائق اخرى هي من حقائق الحياة كالنور من الشمس • ولا اظن ان هـذه المزايا كلها اجتمعت لشاعر واحد من شعراء العرب •

قل ما رق من الشعور للمتنبي وندر ما دق • اجل قد يتعمد ابو الطيب الغموض فيجيئنا بالغاز باردة • وفي شعر ابي العلاء لا نسمع للقلب صوتاً الا ما كان تكلفاً واجتهاداً • وشعر الفارض غابـة مدلهمة فيها عرائس حاملات شموعاً ضئيلة تركض امامنا لتهدينا الى جنات النعيم •ولكن الشموع تنطفئ• في وسط الغاب والعرائس ينشدن ويختفين في الظلمات • وهذا اجمـل ما جاء في الشعر من وصف اسرار الحب والوهية الاسرار • اما هذه المزايا الثـلاث التي تقاسمها ثلاثة من شعرائنا فتجتمع كلها لشاعر اليونان هوميروس ولشاعر الانكليز شكسبير •



الموسيقى الافرنجية والعربية

لا اقصد في هذا المقال الوجيز ان اعالج الموضوع فناً وتاريخاً وعلماً . ولا ان انقد الموسيقى الافرنجية في مظاهرها الشرقية . او الموسيقى الشرقية في مظاهرها الغربية . ولا اظنني لو قصدت اهلاً لذلك . اذ لست من ارباب هـذا الفن ولا ممن يدعون ادراك دقيق اسراره . انما هي خواطر خطرت لي يوم سمعت الفتى السورى انيس فليحان يوقع على البيانو شيئاً من نظم الاساتذة الكبار وشيئاً من نظمه ايضاً .

الموسيقى عند الافرنج لغة من لغات الفنون يستطيع العالم بها . المدرك اسرارها . ان يفصح عما يخالج المرء ويسودد من شوق وحماسة وحنين وخيـال . فينظم اهواء النفس انغاماً . ويصف العواطف إنشاداً . ويقص القصص الحاناً . ويلبس مظاهر الوجود وحقائق الحياة ثوباً يحوكه من خيوط ذهبية وفضية على الات تعددت اسماؤها وتنوعت اشكالها . فالموسيقى عند الافرنج اذن هي لغة النفس والروح والعقل معاً .

اما عند الشرقيين . فهي في الاجمال لغة القلب والعواطف . هي فن عنـد الغربيين اساسه العلم . وهي فن عند الشرقيين اساسه الفطرة والبداهة . وكما ان الات الطرب عندهم عديدة متنوعة تمكن الناظم من معالجة كل مواضيع الحيـاة . فهي

عندنا محدودة النوع والشكل . وتكاد تنحصر في ما يصح منها لبث العواطف فقط ·

وبكلمة اوضح ان موسيقى الافرنج لغة فخيمة الالفاظ . دقيقة التركيب . كثيرة الاوضاع والاصول · وموسيقى الشرقيين لغة بسيطة قواعدها تنحصر في بضعة اصول واوزان · لذلك لا يفهم الاولى ويطرب لها الا من كان ذا المام بقواعدها واصولها · اما الثانية فيكاد يفهمها جميع الناس . لانها لغة العواطف على الاطلاق . فهي تدخل القلوب دون استئذان كما يقال . وتملك العقول فتعبث بالمعقول . وتطرب العامة والخاصة على السواء ·

كيف لا والناظم الشرقي مطلق التصرف يركن الى الفطرة . ويسترسل الى البداهة . فينظم ما تمليه عليه العواطف عند هياجها . وما توحيه اليه القريحة ساعة السرور · ولا غرو اذا ارتجل الانغام ارتجالاً · فيوقع دوراً على العود مثلاً ثلاث مرات وفي كل مرة يسمعك شيئاً جديداً مبتكراً ·

اما اساتذة هذا الفن في اوروبا فهم مقيدون باصول وتقاليد تكاد تكون مقدسة عندهم . وهي اذا افادت الفن وضعاً وعلماً تؤثر ولا شك في قوى التوليد وتقيد البداهة فيهم . فتجيء الحانهم وفيها غالباً من النظم اكثر ما فيها من الموسيقى · ولو لم تكن ادوات التعبير عندهم عديدة لجاءت الحانهم باردة وفي

الاحايين بليدة . ليس في نظر الشرقيين فقط بل في نظر الغربيين ايضاً .

النبوغ وحده لا يكفي اذا قصرت عن اظهاره اللغة . او بالحري الات الطرب . خذ لحناً من الحان (بيشوفن) مثلاً او (لست) فترى الناظم فيها . والات الطرب التي يستخدمها لا تقل عن الخمسين عدا . كثير الالسنة والاصوات — كثير القوافي والاوزان . بل تراه شاعراً تارة وطوراً فارساً . فيقص عليك قصة تتلوها قصيدة . او ينظم نشيداً تتلوه معارك الحرب . او يصعد بك في عالم النفس فتراه شاعراً وفارساً وروائياً وفيلسوفاً معاً ، يمزج زئير الاسد وهو خائض بحر الانغام بعندلة العندليب . وصوت الطبل بنفير البوق . وحنين الناي بزفير الكمنجا . ونقرات الدف بترنيم القانون — يمزج بعضها ببعض كما يمزج الرسام الالوان . ينظم الفاظها كما ينظم الشاعر القوافي . فلكل الة ء ده لغة يعبر بها عن احلام النفس او تشويقات القلب . او هواجس الروح او حقائق الوجود . فيجيء بها صوراً رائعة فتانة . تراها بالاذن على حد قول الفارض لا بالعين « والاذن تعشق قبل العين احياناً . »

وقلَّ من الشرقيين وحتى الغربيين من يفهم مغزى الحان كبار الناظمين كـ (شوبن) (ولست) و (واغنر) و (بيشوفن) وذلك لان عامة الناس لا يحسنون لغة الروح والخيال . ولا

يدركون غالباً في مقاصد الناظم غير واحد منها . وهو انه يستخدم كل آلة من الات الطرب لما تحسن تقليده من اصوات الطبيعة دون سواه ·

وعندي ان الحان هؤلاء النوابغ لشبيهة بقصائد المتصوفين من الشعراء كالفارض مثلاً وجلال الدين الرومي · ففيها ولا شك اسرار الهية . وفيها حقائق سامية بهية · ورغم انها تدون على الورق فيستطيع قراءتها اصحاب الفن . فقليلون من يحسنون فهمها وتلاوتها . او بالحري تفسير غوامضها بواسطة البيانو ·

لذلك نرى بوناً شاسعاً بين استاذ يجلس الى هذه الآلة الفخيمة واستاذ يجالسها — اذا صح التعبير — فيعطيها من نفسه وتعطيه · كما اننا نرى فرقاً عظيماً بين شاعر يتلو قصيدة من قصائد المتنبي او الفارض وتلميذ يلوكها ويلحن بها · واذا استزدتني في التفصيل والمقارنة اقول : ما كل من يحسن القراءة يحسن تلاوة الشعر . ولا كل من يحسن تلاوة الشعر يجيد في انشاد ايات القرآن · ولعمري ان الحان كبار الاساتذة في فن الموسيقي لكمثل آيات الكتاب بلاغة وبياناً ·

هذا بعض ما دار في خلدي يوم سمعت في (ايوليان هول) فتى سورياً ظهر لاول مرة امام الاميركيين يوقع على البيانو شيئاً من اناشيد (شومان) و (بيثوفن) و (لست) وشيئاً مما نظمه هو من الالحان العربيـة · فاذا قلت ان انيس فليحان يحسن

الضرب على البيانو فكاني قلت انه يحسن القراءة • واذا قلت انه استاذ في فن الموسيقي فكاني قلت انه يحسن دون لحن تلاوة الشعر . ولكنه في ما وهب فوق ذلك •

فهو يتفنن بالقراءة والتفسير كما يتفنن الشاعر بالنظم • وكما يتفنن الرسام بمزج الالوان • بداهته شرقية . واصوله غربيه . واسلوبه يجمع بين محاسن الاثنتين • فهو لين الانامل طيعها شديد الشعور لطيفه . في سكناته بلاغة . وفي حركاته سحر البيان . تسبق نفسه تارة يده فيطرب في وقفاته . كما يطرب في كراته • وطوراً تسبق انامله نفسه فتلاعب البيانو كما تلاعب العاصفة امواج البحر • فيكاد السامع يضيع حيرة • ثم تدغدغها فيطرق دهشاً . ثم ترقصها فيهتز طرباً •

على انني احسست احياناً وهو يوقع الالحان الافرنجية انني لا استطيع ان اتتبعه واللحن غوامض فنه • ولا عجب . فان انشودة من اناشيد (بيتهوفن) لكمثل قصيدة من قصائد الفارض . عذبة الالفاظ . غامضة المعنى . لذيذة الانغام . شريدة الافهام . وحسب المرء ان يقف عند شاطئ البحر فيسمع هدير امواجه وما يتخللها من حفيف اجنحة النسور • وخفيف غطات الطيور •

ولكن الفتى فليحان طار بنا على اجنحة الخيال الى عالم العواطف والحنين — الى بلاد العود والدف والقانون — في ما

اسمعناه من بديع نظمه وعجيب الحانه . اجل . ان في الحانه العربية المعنى الافرنجية المبنى قد هز فينا اوتاراً لم يلمسها شيء من بدائع اساتذة الافرنج . وبرهن لنا ولمن سمعه من جهابذة الفن من الاميركيين انه استاذ ماهر وشاعر صميم . جمع بين الاصول الافرنجية والبداهة الشرقية . ما لم يستطعه في هذا الزمان عند الافرنج غير الافرنسي (ده بوسي)

ولا عجب اذا برز هذا الشاب السوري في المستقبل على (ده بوسي) في ما ينظمه من الالحان الشرقية او العربية . ففي « التقسيم » نظمه وفي « المناجاة » وفي « رقص الدراويش » استنطق البيانو بلسان العود والدف والناي والقانون . بل انطقها وهي آلة افرنجية بالسنة الدراويش العربية . فكدنا وهو برقصهم نرقص طرباً ونسمعهم يصيحون « الله هو الله هو » ! حتى الاغماء . وبينما هو يسمعنا « التقسيم » اغمضت عيني فخلت ان شكري السودا يلاعب بريشته الساحرة اوتار العود . وهذا لعمري عين الابداع في الفن . بل هو برهان قاطع عندي ان في صدر هذا الفتى السوري شيئاً من نار الالهة واشياء من نور النبوغ . ونصيحتي له وقد ملك الآن ناصية الفن واتقن اصوله واوضاعه ان يقلل من تردداه الى الموارد الافرنجية ويكثر من نظم الالحان الشرقية . فهو ابن بجدتها . والغربيون مثلنا يطربون لها طرباً شديداً .

بــلادي [1]

ان الازهــار في بلادي الاعيب الطفولة . وهي هدية من الطبيعة ثمينة تتحفنا كل عيد بها . حتى انها في عيد الميلاد تنادي الصغار وتدعوهم الى القلال المتوجة بالثلج لتفاجئهم هناك بازاهر البنفسج البرية . فيأتون بها الى محراب القديس المحلي الذي يعدهم بحقيق رغباتهم اذا كانوا يصلون بينما يقطفون الازهــار باسمه . واذكر اني صليت مرة في نوبة غضب وحسد فدعوت بالموت على ولد سبقني الى نقطة مستحبة تظللها صخرة وقـد نبت فيها طيّب البنفسج الغزير . وما هــو الا اسبوع حتى انتشر الجدري في القريــة فذهب بحياة ذلك الولد رفيقي في اللعب . فنقمت على القديس لانه استجاب طلبتي . وآليت على نفسي الا اصلي له بعد ذلك والا اجمع الازهار باسمه . لانه اذا كان قد سمع صلاتي فما احراه ان يسمع مني ايضاً صوت الندامة .

وهكذا قد داخل الشك ايماني منذ حداثتي . الا ان الطبيعة لم تبرح تتحفني بهداياها — الازهار — وهذا ما جعلني اصبو اليها بكليتي . حتى اني اقمت منها نفسها قديساً لنفسي دعوتــه — مار زهر المسيح [2] — في غابة الصنوبر اقته وفي حمى الصليب .

---

(١) كتبت اصلاً باللغة الانكليزية (٢) ويدعي ايضاً دويك الجبل

وما الذي وفق بيني وبين الكنيسة ؟ لم اكن عندئذ اعلم — ولا انا اعلم الان . على ان هيكلي اليوم ومسيحي قائمان في غابة الصنوبر بين الازهار .

وسواء كان محب الطبيعة شاعراً او فيلسوفاً يلبي دعوة الازهار التي تنور كل سنة عند محراب ايمانه . والطبيعة لاتذهل ولا تغير عادتها فلئن كنا في اقصى بلدان العالم فهي تسمعنا ابداً صوتها . والا فلماذا — وانا اقاسي الموت كل مرة — اجتاز المحيط لازور وطني ؟

اميركا ايضاً ارض ميلادي — ميلادي الثاني . وهو ارفع في نفسي من وطني الاول . وفيها ايضاً اجدني في قلب الطبيعة آمناً مستأنساً . فهذه الاقاحي من اجمل ما تصنعه التربة والحرارة والغيث . الا ان جمالها عندي يشوبه الم الذكرى . فالاقاحي التي عرفت دلال حبي في صباي . والتي دعت عتمة قلبي المملوء اوهاماً . هي اذكى رائحة وابهى طلعة وشكلاً . وها هنا جنات تفوق ينابيعها وبراعة يد الانسان فيها جمال الطبيعة . الا اني كيفما اتجه النظر في محاسنها . لا ارى بعين المخيلة الا رسم حوض الريحان الذي كان لامي .

وها هنا ينبت ايضاً زهر المسيح . وهو انمى واجمل من النباتات النحيفة التي تطلع من بين شقوق الصخور في بلادي وفي ثقوبها وظلالها . الا اني حين اتصورها يحملني الخيال الى

حقول الفتوة فاراني راكضاً حافياً في تلال لبنان . مصعداً طوراً في هضابه وقد كستها الازهار . وطوراً نازلاً لاقطف في الوادي (يوم الجمعة العظيم) طاقة احملها خاشعاً الى الكنيسة واضعها عند قدمي المصلوب العزيز .

وما اعلى الشربين في وطني الثاني وما اجمله وما اعظمه ولكن صنوبر لبنان اقرب الى قلبي . والصنوبر فضلاً عليّ لا اجحده دانياً او قصياً . فقد عشت في ظلاله ردحاً انتفع بغيثه ونفحاته الطيبة . لذلك لا اتحول عن حبي اشجار صباي وذكري الاعيب الطفولة وتلك السذاجة الطاهرة الاولى .

لله من غضب الالهة — ان المة وطني لناقة عليّ .

والا فما الذي ينبه الروح فينا ويستحوذ على قوانا العقلية ويقودنا بالعواطف الى امصار ندعوها الوطن او مسقط الرأس ؟ اني جاهل حائر فلا اعتبر الوطنية وجلها سياسي . ولا حب الوطن وكنهه الانانية . ولم اكن قطعاً وطنياً في ايهما ولا في ما حدده دجنسون [1] من الوطنية .

وفضلاً عن ذلك ان وطناً لم تتحقق فيه الحريتان الشخصية والروحية لا يستحق الحب والاجلال . وان المرء يستطيع ان يخدمه وهو في بلاد بعيدة عنه . ولقد عالجت وطني قريباً وبعيداً .

(١) صمويل دجنسون كاتب انكليزي مشهور باقواله وحكمه المأثورة . ومنها : ان الوطنية آخر ملجأ يلجأ اليه المنافقون .

وكنت في الحالين واحدًا وكان الدواء واحـدًا . ولكن الداء عضال والشقاء التام قلما يكون [1]

كفانا ما تقدم في الوطنية . ولكننا نتساءل كيف ينشأ حب الوطن ؟ وما هي اسبابه ؟ أهل هو في اللغة ؟ ان الانكليزية عزيزة عندي كالعربيـة . أم هو في المعيشة الاهليـة ؟ ام في العادات والتقاليد ؟ فما احببت وطني لما كنت فيه . وما راقني فيـه عيش رأسه البساطة والسذاجة ولا كنت اعرف الا القليل من جماله . لذلك كنت مسرورًا يوم ودعت لاول مرة اهـلي وهجرت الوطن .

او لعل حب المرء بلاده ينشأ عن المذهب القومي؟ او ينحصر في دين اباءه واجداده ؟ لا ادري ولكني اعلم ان تلك البلاد التي ادعوها وطني كانت ولا تزال محرومة من مذهب قومي خاص . كانت في عهد انطيوخس الكبير بـل في ايام زميلي الكاتب الفينيقي سنشوناثون كما هي الان . اما دين اجدادي فقد كان في جيب قباءي الذي خلعت يوم ركبت البحر مرتحلاً .

مـا هو السر اذن في حب الوطن او في ذاك المرض الوطني المزمن ؟ ألعله سحر الكهان او دعاء آلهة الاوطان ! قـد البي الدعاء فاعود فارى الهيكل خراباً . وقد اعود مسحورًا فتحل رقية السحر عند الباب .

---

(١) وهذه اوروبا اليوم بل العالم باسره يئن من ادواء اولها واشدها الوطنية

او هي هدية الطبيعة بل هداياها عند الباب ودونه . التي تعاون الساحر وتعطر كلمات الآلهة ونفحاتها ؟ اراني التمس في ذا الموضوع نور الفكر لا نور العاطفة . لان الجمال وحده لا يخفف من آلام الحب والمعرفة .

او لعل الاعيب الصبا تمسي عندنا الاعيب الروح ؟ ها هنا اخالني اقتربت من الحقيقة . اجل ان علينا ان نعود ثانية الى الطفولة لنفوز بشيء من البهجة والحبور في حب الوطن . وفي تلك المناظر المطبوعة صورها بالاذهان منذ ايام الصبا .

اجل ان احلام الفتوة وسذاجتها الجميلة النقية وجمال الطبيعة الظاهر والكامن معاً . لتتصل اسبابها باشجار الوطن وازهاره وبسواقيه ومروجه وهضابه . اجل . ان كل ما يشغف الولد في سنيه المقدسة لينطبع في ذاكرته النقية فيكون منه لنفسه حياة روحية . ابداً جديدة . ولكنها كالازهار تخضع لناموس التطور ومشيئته — فهي تنمو — وتبرعم — وتذبل . واذ تذبل تفرش من اوراقها سجادة تحت اقدام الذكرى . وتطلي بالذهب الباهت شفق الروح وتملأ ما يستقر عندها اريجاً منعشاً طيباً .

ان روح الولد مستنبت يمسي جنة اسر ما فيها ازهار الذكرى واحزنها اشواك الهجر . وهذا على ما اظن السر في الحنين اليها . بل هي معبد دفنت فيه ملائك احلامنا وابطال التصور والامل

وسيكون زهر المسيح شفيعي لدى القديس في كنيسة

القرية . بل لدى الاله الهي في معبد الوادي . فاني عند ما اقتلع تلك الازهار من مكامنها في الصخور اجتهد ان احافظ كذلك على اوراقها المطرزة وعلى كل عقدة من لفافتها القرمزية النحيفة . فاشاطرها حياة الهجر وحياة اخرى منشأها الحب الانساني . واني لأجد في الاثنتين لذة لا يماثلها شيء في الاحلام والامال المادية .

اما مستنبتات امهاتنا وفيها الحبق والريحان فكم لقينا في تخريبها من ازهار السرور . وتلك الازهار نفسها وتلك النباتات الطيبة الزكية التي كنا نتلفها لاعبين . ما زالت تنمو وتبرعم لتنشر حولها ثقة بالنفس واملاً بالحياة . وهذا كل ما يتطلبه البشر الفاني المتعثر في فيافي الخوف والشكوك .

افلا ترى اذاً ان تلك الالاعيب — الاعيب الصبوة — وتلك الرموز — رموز الروح — لتحيَ حقيقة في الازهار التي كنا نجمعها لقديس القرية . وكم مرة ضللنا الطريق واقتحمنا العواصف في سبيلها ؟ أفلا تراها في غض الكلاء وكثيف الادغال حيث كنا نتغلغل فرحين ونضيع لاعبين ؟ أفلا تراها في الاشجار التي كنا نتسلقها ابتغاء ثمارها ولا تزال اغصانها تحن الى استماع اغانينا الجبلية ؟ أفلا تراها في الجداول الفضية المتدفقة التي كنا نجتازها في الشتاء مزدرين اخطارها ؟ أفلا تراها في الكروم البهجة التي كنا نسرق عنبها الذهبي والقرمزي وفي الحقول الخضراء المطرزة بالازهار التي كنا نجمع منها . لاحد الشعانين .

الخندقوق وشقائق النعمان ؟

ان حب الوطن المجرد من هـذه المحسوسات الطـاهرة والتذكارات الروحية لحب سياسي مادي لا يشغل العقل منـا ولا القلب .

اما تاريخ بلادي فهو والحق يقال تاريخ بلاد بلا علَم ووطن بلا نشيد . ولـكن رسالتها الروحية اضرمت قديماً قلب العالم . اما تقاليدها فهي تقاليد امة ولا ملك ولا زعيم . تقاليد شعب ولا حقوق ولا حرية . تقاليد نفس ولا هيـكل ولا ايمان . ولـكن روحها القديمة لا تزال حية تتألم ولذلك ستنهض للجهاد والفداء . ولئن كانت اسوارها المتهدمة وجناتها الذابلة المهجورة قائمة بين رمال البادية و امواج البحر — بين عقمين خالدين — فان ارثها الخالد الصليب . ومجدها الدائم الازهار .

سوريا . بلادي . بلاد الورد والفل والوزال . انت مهد الالهة وفيك قبورهم . انت الصليب والمصلوب . انت الوطن الروحي لـكل شعوب الارض . فلما عبدتْ بابلُ تموز . ولما عبدت بعلبك المشتري . ولما استظهر الجليل على اليهودية . ولما انتصر قريش على الجليل . كنت ينبوع حياة جليلة تتهافت على مواردك الامم . بل كان هيكلك هيـكل المجتمع الانساني . وكان صوتك صوت الله .

ايه سوريا بـلادي . فمن دجلة الى البحر الاحمر . ومن

الطور الى الحجاز . كانت روحك جنة الوحي وكان جمالك مطمح الملوك . واذا كانت قد خلت جبالـك من الانبياء اليوم فان بلابلك لا تزال تغرد في سهولك وهضابك . والورد لا يزال ينور في قلبك . والارز لا يزال – من اعاليه وقد كللها الثلج – يمد ظلاله وينشر طيبه فوق رمالك الذهبية .

سوريا بلادي . بلاد الورد والفل والوزال . مهد الالهة ولحد الالهة . انك . وان غدوت قفراً سبسبا . لكعبة الروح الى الابد ومطمح انظار الممالك والامم .



الكنيسة والجامع [1]

لم ارَ بين سائر اماكن العبادة التي اعرفها (وقد حملت نفسي المنسحقة وركبتي التعبتين الى هياكل عديدة) افضل من الجامع . وما ادراك ما الجامع ؟ هو المكان الذي يؤثر علي بديموقراطيته اكثر من سواه لما فيه من شواعرها المتنوعة . فليس في الجامع ما يداهن الاغنياء . او يكسر قلب الفقراء . او يغفل الورعين . او يرد ثقيلي الاحمال خائبين .

وليست بشاشة الجامع بمقاعده المزدوجة . وليست رغبة الناس فيه لصدقاته . والخدمة يوم الجمعة تكاد تنحصر بخطبة مصدرها القرآن فهي اذن لحن من البلاغة تعشقه الاسماع فيحدث في القلوب خشوعاً وفي الافكار نزوعاً الى العلاء .

الجامع كبير يسع الخطباء وحتى النوام من المصلين . ويبقى بين الاثنين فراغ لا يضر . فالمنبر لا يكون دائمًا قريباً من الزوايا الساحرة التي تظلل المسلمين ونفوسهم فيفسدها عليهم . وهم على اختلاف طبقاتهم يجتمعون للصلاة وللراحة تحت سقف واحد . فتجد بينهم درويشاً يتمتم الكلام . وشحاذًا اعمى . وحمالاً منهوك القوى . واعرابياً عليه غبار البادية . وكلهم يؤمون الجامع ضارعين

---

(١) كتبت اصلاً باللغة الانكليزية

خاشعين . طالبين راحة بعد عناء باغين غفوة في الاصيل قصيرة . فينام هذا امام المحراب . ويتمدد ذاك على الرخام البارد تحت الاروقة . بين يكون الشيخ او الامير راكعاً على سجادة عجمية ثمينة . قائماً بصلاته .

وهوذا درويش يتمتم قائلا : بسم الله الرحمن الرحيم . ويعدد خرزات سبحته حتى تبلغ النفس منه درجة الغيبوبة . هوذا فقير يتثاءب ثم يهتف : ياالله يا كريم . ويخر مكباً على وجهه . وهناك بدوي ممدد تحت الرواق كانه جثة هامدة . وليس من ملحد او جاهل او طفيلي يزعج المصلين او يعكر راحة المستسلمين

الجامع ميناء يرتاح اليه الشحاذ والامير . وهيكل يضم المؤمنين . وناد يقبل اولاد الله على السواء . هو حيث يعثر المنبوذ على حجر يسند اليه راسه . فتكتنفه رهبة القبة الواسعة التي تعلوه ولا ما يحرك السكينة في ذلك المكان الرهيب الا كلمات — ياالله . يا كريم . التي تدفعها الصدور وقتاً فآخر . ولئن كان الجامع قائماً في سوق النحاسين فيندر دخول صوت اليه من الخارج يفسد رهبة المكان . وان النفس لتخشع فتدعو الجسد . وتبتهج فتدعو العقل . الى علويات السكون الذي لا يوصف ولا يحد .

لا صنوج ولا اجراس . لا آلة موسيقية ولا جوق مغنين . لا رسوم ولا تماثيل . ولكن اضواء الايمان المشتعلة دائماً تهدي

النفس فتجد خلال ذاك السكون وتلك الرهبة سبيلها الى العزة الالهية . الى الاله الواحد . الى الله .

دخلت ذات يوم جامعاً في احدى القرى لاستريح وقد خلعت حذاءي عند الباب وانا معجب بهذا التقليد الحكيم . والحكمة فيه حسية وروحية معاً .

فانه اذا كان من العيب ان تدخل بيت الله وحذاؤك في قدميك فكم بالحري اذا دنست سجاد الجامع الثمين باوحال الطريق وغبارها ؟

ناهيك بما اعتراني من السرور في العمل بهذا التقليد لان حذاءي كان ضيق على قدمي فقلت كما يقول الكثيرون ولا شك : نعم العادة التي في ممارستها راحة واحترام .

ولم يكن داخل الجامع سوى مصليَين . رجل وقور طاعن في السن في احدى الزوايا وشحاذ قريبٌ في اطماره من العرى في الزاوية الاخرى . اما انا فقد جلست على حصير تحت الرواق مسنداً ظهري الى عمود . ممدداً ساقي . وكنت اذ ذاك كأني في منزلي .

ان الراحة والاستسلام من اصول التعبد الحقيقي . وهما مما تجد في الجامع في كل ساعة من ساعات النهار وفي كل ساعة من ساعات الليل . ولقد صليت كما احببت . وخرجت مع رفيقَي في الصلاة واخوي في تسبيح الله . اما الشحاذ فكان حمالاً وقد ترك

حمله عند الباب واذ تعذر عليه رفعه اسرع الشيخ المهاب لمعونته مشمراً ردنه الحريري وهو يقول : باسم الله • وانحنى الحمال تحت حمله الثقيل وقد تقلص عصب رقبته تحت الحبل المشدود على رأسه ثم خطا متثاقلاً ولكنها خطوات ثابتة باسم الله •

والتفت الشيخ اليّ وقال لي مشتبهاً : وهل أنت مسلم ؟

فاجبته وانا اشد حذاءي : اني اعبد الله واكرم النبي •

فدعاني اذ ذاك الى مناولة الغداء معه • وفي المسجد كل غريب للغريب نسيب •

ذكرني هذا بزورة لمدينة (نيوبورت) وهي مكة الاغنياء في اميركا • وهناك ذهبت للصلاة ايضاً وكانت الكنيسة وهي بناية من الخشب صغيرة رغم من يؤمها من الاغنياء تنبىء ظاهراً بحقيقة حالها • فقد نقلت من انكلترا منذ قرنين • ورُكبت تركيباً في (نيوبورت) • اجل • قد جيء باخشابها وبراعيها الاول كذلك من بلاد الانكليز • كنيسة قديمة حقيرة • ولكن الزجاج الملون في نوافذها خاسئ الصنع سخيف • وهو جديد يتزعزع عنده الجلال في الهيكل القديم •

اما ثمن هذا الزجاج فلا نسبة بينه وبين صناعته • وهو مثل كل شيء تافه للاغنياء في تلك البلاد الجديدة العجيبة يقاس بالذهب • وقد قيل لي ان ثمن زجاج نافذة منها الف ريال وهبها احد الاغنياء •

او ليس من الغضاضة ان نذكر اسماء المحسنين في موقف السخاء والاساءة ! واني لأعجب كيف ان اولئك المسئولين عن تشويه خشب الكنيسة وجدرانها لم يضنوا باسماءهم استحياء · قلت المسئولين عن التشويه وحقاً ما اقول · فانـه لا يطاق ان ترى النوافذ الملونة الزجاج على حائط خشبي رقيق · لا يخلو من شارة هندسية · فتشوه جمـاله البسيط · وتمنع انعكاس نور الشمس عليه ·

ألا ان الاحسان لا يعيش في الظل · بل ينفخ في بوقه على السطوح في رائعة النهار · فيا ايها البوق · بوق التبجح · اني لم اسمع صدى صوتك في ذلك الشرق الهادي وفي تلك المساجد المملوءة هواء نقياً ·

ومما استوقف نظري في الكنيسة ايضاً تلك المقاعد المربعة الزوايا التي تستطيع ان تضع مكانها عدداً من الكراسي المزززة · وهي موضوعة على شكل الدواوين يجلس اربابها متقابلين كانهم جالسون في بهو الاستقبال · اولئك هم اغنياء اميركا · وهذه عندهم ابهة العبادة ·

ولماذا ياترى يقسم مكان العبادة الى مقاطعات ؟ ولمَ لا تكون الكنيسة كالجامع الفسيح · المطلوق للهواء النقي · تؤمه حينما تشاء وتبقى فيه ما تشاء · ولا حرج عليك · ولا قيد · ولا ضريبة ان في المقاعد الكنائسية مايكره المرء على طويل الصلاة·وان

فيها ضريبة مرسومة • وضغطاً على الحرية الشخصية • ولقد ترغب في ان تذهب الى الكنيسة لقضاء بضعة دقائق تنبيهاً للروح او غذاءً للنفس • فتكره على البقاء ساعات محصوراً في المقعد فتعكر غالباً على الاخرين او يعكر الاخرون عليك صفاء التأمل والنجوى •

وقد علمت ان مقاعد كنيسة (نيوبورت) لا تباع • ولا تؤجر ولا تقدم مجاناً للمصلين • ولكنها تقتنى اقتناء فكانها ملك لصاحب بيت او لرب عرش يتحول بالارث من الاب الى الابن • فلا يستطيع الغريب ان يدخل بيت الله ابتغاء الصلاة الا اذا اراد ان يقف عند الباب صابراً قانعاً • وان خلاص نفسه لاسهل من تمتعه بمقعد يستريح فيه من عناء الوقوف •

اما انا فقد جلست في مقعد مضيفي • واخال انه تملكه عسوة لان في كتاب الترانيم اسماً غير اسمه • بل فيه اسماء عديدة لأسر انكليزية عريقة بالنسب • توارثت هذا المقعد بعضها عن بعض • دليل ذلك ان لم يبق فراغ في جلد كتاب الترانيم لاسم آخر •

ان الاغنياء ليقاسون شيئاً من الكرب سببه غناهم • وقد تهضم كذلك حقوقهم • فقد فاه مؤسس الديانة المسيحية نفسه بكلمات مؤلمة شديدة عليهم • وقد حرمهم السماء بمثل واحد من امثاله • فوالحالة هذه يجب ان لا يعدموا حقاً بسماء اخرى على الارض • في كنيسة صغيرة • حيث يستطيعون ان يناجوا ربهم

على آخر زي دون من يزعج او يلوم .

ها هنا يجبس اولئك الاغنياء المساكين انفسهم ردحاً قصيراً من الزمن . ولا حق لاحـد من سائر سكان الغبراء ان يتطفل عليهم في ساعة يوقفونها لعبادة الله . فهم يستوون واقفين في مربعاتهم رصينين متأنقـين فيرتلون النشيد المئة والسادس والسبعين او المزمور الواحد والخمسين خاشعين . فتتشرب كل حواسهم الايمان . ويستشعرون سلاماً وسكينة . لا نظير لهما في غـير عالم الروح . وهذه حال الواعظ الذي لا يلقي عليهم من المنبر شيئاً من امثال الناصري عن الغني والعازار مثلاً او عن الجمل وثقب الابرة . ان هذا المحترم ليراعي شعور رعيته واميالها .

استغفر الله مما ذكرت . فقـد جئت الكنيسة لاصلي لا لانتقد . واما اولئك الذين قد سببوا فيّ هـذا التغيير العقلي السيء . بعيدين كانوا او قريبين . غائبين او حاضرين . فاني اسأل الله لهم مثلما ابغي لنفسي من الرحمة والغفران .

قد اقامت الصلوة . ولكن الجزء المهم منها لم ينته . وسيقام في الزقاق الضيق امـام الكنيسة . حيث شرذمة من البوليس يحفظون نظام العربات الذاهبة الاتية . فيتحرك نحو الباب قطار السيارات الفخيمة المتعددة الالوان والاشكال . يحف بها الحشم وعلى دفتها السائقون الكيسون المتشامخون . والعربات تجرهـا المطهمات . فيثب منهـا الغلمان في الاثواب المقصبة الرسمية

يفتحون لاسيادهم الابواب ويطأطئون الرؤوس للسيدات •

غوغاء وغرور . . . ضجيج وتصلف . . . معرض مدهش في العبادة . . . ابهة وفخفخة في الورع والتقوى . . . تعال يا اخي المسيحي الفقير . تعال معي الى الجامع .



روح اللغة

ان للغة جسماً لا ينمو الا بالغذاء الجديد • وان لها روحاً لا يعلو أدب عليها ولا يدوم ادب دونها • ولكن الاجسام عرضة للاسقام • واراء الناس في الارواح لا تخلو من الاوهام • فاللغة اذاً تحتاج الى رجل الدين حيناً • ورجل الطب احياناً • اما امامها فهو شاعرها • واما طبيبها فهو أديبها • وما العمل اذا مرض الاديب وعجز الشاعر ؟ العياذ بالله • وبما هو صحيح من روح اللغة • العياذ بمن يرى الصحيح فيستخدمه ليداوي ما اعتل فيها فيجدد قواها ويفسح لها من الحياة أجلاً زاهراً • اقطع الغصن اليابس ولقح الغصن الطري• تسلم الشجرة فتنمو وتزهر • كذلك فعل دنته في اللغة الطليانية • وشكسبير في اللغة الانكليزية • وفكتور هوغو في اللغة الفرنسية [1] • ولا ريب ان في سوريا ومصر اليوم من يحاولون شعراً ونثراً — وان عد احسانهم قليلاً — تجديد حياة اللغة العربية وتوسيع نطاقها لفظاً وبياناً •

اني ممن يتعشقون هذه اللغة الشريفة • واذا كانت الانكليزية

---

(١) وما هؤلاء بلغويين ولكن اللغوي يتبع الشاعر فينقح كتب اللغة لتشمل ما في جديده لفظاً ومعنى من الجميل الجلي البليغ

تسابقها احياناً الى خيالي . وتجلس مكانها في معقولي . فهي لا تزال على لساني . وفي قلبي . وطي احلامي . ليعذر مني القارئ هذا الافصاح . فمن العادي الفطري ان يحب المرء لغة أجداده . ولكن لحبي غير الفطرة تؤيده وتحميه . فهو ناشئ عن اعجابي العظيم بالجميل الخالد من الآداب العربية — وما هو بالقليل اذا قسناه بغيره من مثله في لغات الاجانب .

لا يلمني القارئ اذاً في تقديم العاطفة على البحث والبرهان . بل لا يلمني اذا جاءت كلمتي في روح اللغة اقرب الى شواذ البحث منها الى اصوله . فهي كلمة عاشق . هزني اليها صديق لي قديم سمعت حديثه أمس في دار الكتب العمومية — سمعته في نيويرك وهو في بيروت . وها اني اسرع الى ازالة العجب :

كنت ماراً في شارع هذه المدينة الكبير . وكانت ساعة ليس لسواي حق بها . فدخلت المكتبة وسرت الى الدائرة الشرقية منها فوقع نظري هناك على مجلة الهلال وفيها مقال ممتع للاستاذ جبر ضومط في اللغة العربية . فطالعته شيقاً الى استماع حديث هذا الصديق الفاضل في موضوع هو ابن بجدته — كما يقال — أو بالحري هو محيط محيطه . وقد راقني منه خصوصاً تعداد محاسن اللغة العربية والمقارنة بين ادابها واداب سواها من اللغات . ثم استشهاده حتى علماء الافرنج في ما لا يحتاج عندي الى غير برهانه أحسنت يا صديقي الاستاذ . أحسنت . ولكنك في ذكرك اياي

وسوء الك استهويت واستزلت . فاني بين اللغتين مثلي بين معشوقتين لا ادري والله ايتهما اجمل ولا الى ايتهما انا اميل .

على اني قرأت صفحة في جمال الاثنتين . والممت بما في الهامش من شرح الغامض ناهيك بغموض الشرح . فكان حظي من بعض الاسرار يسيراً . الا ان من ذا اليسير ما يعد في عرف العارفين كثيراً . كيف لا « وبضدها تتبين الاشياء » ! فالورد في الاحراج أجمل منه في البساتين . وحسنات آداب اللغة في الجاهلية على قلتها ابهى منها قياساً في حضارة هذا الزمان . وذلك لان دائرة نورهم تلألأت في الظلام . ودوائر نورنا تكاد تختفي في الكبيرة البهية من الانوار . ما العمل ؟ ومن الملوم ؟ ان لا فضل لنا اذا كنا نرضى ان نكون مثل من نظموا ونثروا في الجاهلية وفي صدر الاسلام . بل نحن الملومون اذا كان نورنا اليوم لا يشع بين انوار الامم المتمدنة فترنو اليه الابصار مدهوشة مستهدية .

* * *

من جميل ما قلت ياصديقي الفاضل ان رقي اللغة في رقي أبنائها المشتغلين بها . هذه حقيقة كبيرة أستأذنك بتقديم اختها الصغيرة وهي ان رقي اللغة لفي الخروج على السمج العقيم من مألوفها مع المحافظة على روحها . ولكن الخارجين من الكتاب اليوم على المألوف وعلى الروح معاً كثيرون . فيخيل اليك وانت تطالع ما ينشرون انك تقرأ لغة اجنبية في الفاظ عربية . ولكني افضل

هذا الانشاء — وفيه من غرابة وركاكة ما فيه — على انشاء عربي لا غبار على « سيبوياته » وقد أخذت معانيه كلها ومبانيه من « الفرائد الدرية » وغيره من « المحنطات » اللغوية ·

وعندي ان ضرر مثل هذه الكتب اشد من ضرر لغات الاجانب في من لا يحسنون من الكتاب حتى الترجمة · بل لا يحسنون حتى التقليد · واننا اذا علمنا التلميذ ان يقول كتابة « تمشي الامير » مثلاً فيكتب « تحركت ركابه » او « اخفق المرء سعياً » فيكتب « عاد بخفي حنين » · او « نكث عهده » فيدهشنا ببلاغة « قلب له ظهر المجن » وغيرها من ثمار البيان الشبيهة بثمار صدوم · فاننا نعلمه حديثاً لا يفهمه ابناء زمانه · وان فهموه فلا يهمهم · ولا يفيد · ان في مثل هذا القديم بل هذا التقليد جمود اللغة وعقمها · و كلنا نعلم ما يتبع الجمود والعقم

أجل استاذي · ان رقي اللغة في نموها الدائم · والنمو في الحياة · والحياة في ما نألف اليوم ونكتشف غداً · والاكتشاف في الفكر والنظر والارادة · والفكر والنظر والارادة لا تدوم عاملة بغير الحكمة · والحكمة في ان نخبر المألوف فنتجاوزه الى سواه [1] · من الحسن ان الم بشيء من شوارد اللغة · واحسن من

(١) المحافظة الدائمة على المألوف تليق بعلم الاولاد والبقال لا بالشاعر وطالب الكمال

ذلك ان افهم اذا استطعت [1] اصول الشوارد . فانتفع بالاسباب اذا كانت شاملة . وقد اتخذ من القوالب ما ترتاح اليه . وفيه . افكاري . ولعمري ان اوضاع اللغة . لا اساليب ارباب الانشاء فيها . خير ما يتعلم التلميذ ويقتبس الكاتب العصري . ولا بد له اذ ذاك . اذا تفرد في ذكائه . ان يتفرد في اسلوبه فينبذ السمج والعقيم من مألوف الاوضاع . ويعود الى لوح الوجود والى حاضر الامة في حياتها الجارية فيتخذ من الاثنين مادة لبيانه . انه ليجد في الاثنين غذاء طيباً جديداً لاسلوبه ولافكاره . لمجازه ايضاً وخياله .

على رأسي امرؤ القيس والمتنبي . على رأسي ابن خلدون والغزالي . ولكن في رأسي عينين تريانني ارضاً رحبة الى جانبي الطريق التي سلكوها . ومن الحكمة اذا سرت في الحقول مستكشفاً . مستوحياً . او متنزهاً . ان اراقب من حين الى حين منعطفات الطريق فلا اهجرها تماماً . ولا اسلكها عماوة . وهذا ما اعنيه في نبذ المألوف والمحافظة على روح اللغة .

* * *

كان يوم وكانت « الفرائد الدرية » لي بستاناً . و « نهج البلاغة » ميزاناً . و « المقامات » ديواناً وخواناً واني لاذكر اول

---

(١) كثيرا ما وقفت في هذا الباب . ودبيت . وعدت نادماً على خطاياي

مرة فتحت القاموس فوقع نظري في حرف الخاء على مادة خرج فقلت : وسفر الخروج . نقرأه في المروج . على انه حدث قبل ذلك حادث استقام فيــه نوعاً امرنا — امر هذه اللغة وامري .
(ولا بأس بالاشارة هنا الى ما قد لا يشير اليهسواي الا معتذراً فمن حسناتي — كَثُرت او قلّت — اني حكيم في ما لا يهم الناس في الاقل ولا يضر بالكون . وهي حكمــة لا يجوز التواضع عندها . ولا التفاخر بها . اني ذاكرها فقط وفي رأس الطير ورأس الحية ايضاً ما ينسيهما الدنيا في ما هما فيه مباشرةً)

عندما ازمعت اذاً هجر ما الفته من ضروب الاحسان . في البلاغة والبيان . اقمت والقاموس سنة . عددتها من ايام اهل الجنة . فنسيت في خزعبلات اللغة خزعبلات الحياة كلها . واعذب الخزعبلات ابعدها من الاصول . ومن المعقول . فما القاموس — على رأي الشدياق — بكابوس . ولا هو تاج العروس . القاموس مستودع قمح فيه من الزوان والحصى والتراب شيء كثير . وقد تزودت من بعد الغربلة — « انا على سفر لا بد من زاد » — ما قد لا يكفي في نظر علماء الازهر ابن اسبوع في الكتاب الكريم . ولكن القناعة كنز لا يفنى . وما كلف الله نفساً فوق طاقتها — ان في الامثال وفي الكتاب تعزية للكتاب والحق يقال ان خلاصي منوط غالباً بالاقتصاد . وكثيراً ما الجم قريحتي فنسير الهوينا في الموعرات . او استوقفها فنجلس نستريح

في ظل السكوت ونعيمه . فيشكرنا اذ ذاك القارىء . وتشكرنا كذلك اللغة [1]

لست في المفردات الشدياق . ولست في الاوضاع اليازجي . ولا انا من الطامعين بمثل هذا الغنى . ولكني اعلم ان للالفاظ — مثل ما للغة — من التاريخ والتطور ما يفيد اللغوي معرفته . وقد يستفيد من الالمام به بعض الكتاب . واعلم ايضاً ان مزية الالفاظ انما هي فيها . قائمة بنفسها . وقلما تزيدها لدى الشاعر . صقلاً او خشناً . المعرفة باصلها وشأن تطورها .

ها هي امامك في القاموس . اضرب صفحاً عما فيه من الوحشيات والخنفشاريات . من المستهجن والعقيم والبذيء . (حبذا قاموس مجرد منها) وقس الالفاظ بما عندك من حسن سمع وحسن ذوق . وحسن نظر [2] فان للالفاظ ما سوى الرنة والوزن

(١) من الزملاء الاذكياء المحافظين على روح اللغة والخارجين عليها من لا يدركون الحكمة في اظلال الحياة وفي السكوت . وهم يظنون حتى الحجارة الى جانب الطريق مسرحاً يرقصون عليه او يخطون . فيسقطون والأسفاه في الادغال اللغوية او الخيالية — ويهولون لنا منها باغصان من الطيون والعليق يظنونها آساً ووزالاً . ربة الوحي زوريهم مرة ! ربة الفكر لا تهجريهم الى الابد !

(٢) ما اقبح ذوقهم مثلاً في قولهم عجنجرة اي امراة خفيفة الروح . وعلطميس اي جارية حسنة القوام . وما اجمل وصفهم ما رق وشف من الثياب بالمهلهلة والهفافة . اما : وعجنجرة في قميص هفاف ! اعوذ بالله منها !

بل الموسيقي والشكل الواناً ايضاًوروائح في ما دق وشف وتماوج وفاح من معانيها ٠

اجل ان من الالفاظ ما تعد من الاحياء ٠ لها من مرونة البان ٠ وصلابة السنديان ٠ وسلاسة الماء الجاري ٠ وشذا الرياحين وزمزمة الرعود ٠ وصفير البلابل ٠ وهمس النسيم ٠ وايماء الالوان ما يجعلها لدى الكاتب كنزًا في الانشاء والابداع ٠ اللهم اذا كان يعرف حب الآس من حب البلان ٠ او القمح في الاقل من الزوان ٠ فلا يتزود من القاموس دون غربلة ٠ ولا يغرف جشعاً وجزافاً من كتب اللغة ٠

ليس الكاتب النابغة من كان يبدعياً فقط (اللفظة للاستاذ ضومط) ٠ بل من كان ايضاً حسن الذوق في الفنون الجميلة كلها في الغناء والموسيقى والشعر والنحت والتصوير ٠ فيستعمل الالفاظ كما يستعمل العواد الاوتار ٠ وينظم المعاني كما ينظم الرسام الالوان ويبني جمله مقالاً كما يبني النحات نصباً او تمثالاً ٠ ويمزج ادبه وعلمه وخياله كما يمزج صانع العطور عطوره ٠ فتجيء فيها روح الفنون كلها ٠ اي التناسب والتوازن والتباين في التشابه ٠ خلا الابداع نظرًا وفكرًا وأسلوباً ٠ وهذا لعمري الجمال بعينه ٠ بل هذا شيء من الكمال في الآداب ٠

واللغة العربية تمكن الكاتب الذي يتعشقها ٠ فيجهد النفس في افتهام بعض أسرارها ٠ من الكثير من ذا الجمال كما برهن عن

ذلك الاستاذ ضومط . بل في اللغة ذاتها براهين لا تعد . وحجج لا تُرد . وقد تجسمت في من تجلت لهم روحها السامية من الشعراء والعلماء . كان ابو الطيب . فجاء الشعر منه في أوج الصناعة . فان في انيق مبانيه . وجديد معانيه . وجزل الفاظه . حقيقة ما قلت . وهو في مقدمة من أحاطوا علماً بكل ما في الالفاظ من أسرار المعاني واظلالها وتموجاتها فكان في اختيارها موسيقياً . ورساماً . وعطاراً . ونحاتاً معاً .

وكان ابو العلاء . فجاءت فلسفته الشعرية . وفيها من اصالة الرأي . ودقيق النظر . ورقيق الشعور . وغور الخيال . وحرية الفكر . ما جعل المستشرقين يقولون : انه وُجد الف سنة قبل اوانه . وكان الفارض . فقال لهذه اللغة الشريفة : أريد منك مادة ذهبية . لاسرار الهية . اريد جلباباً هفافاً لكيان خفي علي . اريد ان ابني بناء فخماً لربة الحب والرؤيا . فقالت اللغة : لبيك ! فنظم تلك القصائد الفريدة في بابها المنقطعة النظير حتى في الدواوين الانكليزية والفرنسية التي اعرفها .

* * *

وهل انا انقض ههنا ما قلته في فن الانشاء ؟ عفواً ايها القارىء . اذا كان لي ان اتطال الى الجوزاء فاين لي ان أصلها ؟ ولا تلوم البصيرة اليد في هذا العجز . ولا اليد البصيرة . على ان الشوق حسنة من حسنات الطالبين ولا حد له عندهم . واني

حتى في حبي هذه اللغة طالب • متصوف • فتعذرني • ويعذرني المقربون منها • اذا سرت حول بستانها هائماً وقد طالما ظننت الجدار الوهاج نهجاً او ستاراً • فسقطت مرات عنده كذبابة تحاول الدخول من شباك زجاج مقفل • على اني تسلقت الجدار مرة لجهلي مكان الباب منه • ولشدة ابتهاجي مما شاهدت سقطت في عليقة تحتي •

وسرت زمناً بين العليق والرياحين • في جادة تنتهي عند كل خطوة من خطواتي • ازرع ما قد لا يليق اذا نوّر • بعرش اللغة • زينة او تقدمة • ولكني اؤمل ان ثباتي في ما هويت وقاسيت يجعلني في الاقل من المقربين • فها يدي ولم تزل دامية • وثوبي ولم يزل مزقاً • ويشهد عليّ سيبويه اني ما آثرت يوماً ثمرة طيبة في بساتين الغرباء على زهرة اللهم ذات أريج في بستانه • لا والله • حتى ولا على عنقود جميل اللون والشكل من علّيق علمه • رحمه الله [1]

وهل ادناني هذا من روح اللغة ؟ لا أنكر انه استمالني • وشوّقني • وعلمني فوق ذلك السلام عند اللقاء • على اني والحق يقال ما رأيت غير اظلال وبعض اشعة من روحها في كتب النحو

(١) انصح الطالب والكاتب الجديد ان لا يغتر بطريقتي فيسلكها • الا اذا كان عظمه صلباً والارادة منه أصلب • او فليدخل البستان من البوابة عن يد استاذ عصري •

والبيان ٠ وفي القاموس اقتفيت أثرها ولم أظفر بها ٠ وفي دواوين الشعر ورسائل المترسلين وقفت مرات عند هياكل لها فارغة ٠ وقد تبقّى عليها من الطيب ٠ ونثر الازاهر الذابلة ٠ وسائل الشموع ٠ ما يثير حتى في الوثني الشوق والتقوى ٠ وبكلمة بسيطة ان في كتب اللغة ياصديقي ادلاء فقط ٠ وهم — وان تعددت آراؤهم في «حتى» وسخافات شتى — يشيرون اجماعاً الى الحقيقة الكبرى وهي ان روح اللغة في تطورها ٠ فما مثلاً ابو العلاء : ان طريقته في النظم غير طريقة اصحاب «المعلقات» قبله واصحاب «الموشحات» بعده ٠ وان اسلوب البهاء زهير لغير اسلوب سميه ابن سلمى ٠ والمتنبي في بعض الاصطلاحات والاوضاع غير ابن زيدون فيها ٠ وكفى بالقارىء ان يعود الى ما هو معلوم من اطوار الشعر العربي فيبدو له من الفرق بين الجاهلين مثلاً والمولدين ما لا يحتاج الى برهان ٠

ان روح اللغة كامنة ايضاً في عادات ابنائها — ابناء حاضرها وماضيها — واخلاقهم وتقاليدهم واصطلاحاتهم العامة. والكاتب العصري من درس هذه العادات والاصطلاحات واتخذ منها مادة او في الاقل دليلاً لانشائه ٠ فيجيء وفيه من المعاني والمباني ما هو جلي ٠ حي ٠ وقريب من افهام ابناء زمانه ٠ ومن الخطأ ان يظن ان كل ما جاء به عرب الجزيرة انما هو منتهى الفصاحة والبلاغة . وان استعاراتهم كلها جميلة في كل مكان وزمان . ومن

الوهم ان نتصور في الماضي ربّ العصمة والكمال ٠ كما انه من الوهم ان نحصر نبوغ زماننا في احسان لغة مضر وقحطان ٠ او في الخروج عليها ٠

اني من الخوارج ٠ ولكني احترم من الماضي ما كان موافقاً الحاضر ومفيداً له ٠ او ما كان فيه في الاقل حقيقة ثابتة ٠ او جمال لا يغيره الزمان ٠ ولا ينكره المكان ٠ ولست ارى شيئاً من هذا في كثير مما ألفناه ٠ فلا فائدة في ان نضع لسان قحطان في فم المصري ٠ او لسان حمير في فم الشامي ٠ فينطقون بحرف اللغة ويعبثون بروحها ٠ بل جل الفائدة في أن نتعلم ان نقتبس روح اللغة ونتشربها مما لدينا من نفيس آدابها واوضاعها الجميلة ٠ ومما هو حيّ مثمرٌ من عادات ابنائها وتقاليدهم ٠

ولا شك ان اللغة العربية حافلة بالالفاظ والاوضاع التي تمكن من الافصاح عن ادق الافكار ٠ وارق العواطف ٠ وابعد التصورات ٠ ولكنها تقصر عند الغريب الجديد من مظاهر الحياة في هذا الزمان ٠ لذلك هي تحتاج الى مجمع علمي [1] يدخل اليها بعض الالفاظ الفنية والعلمية الحديثة ٠ ويجيز بعض الاصطلاحات العامة ٠ كما فعل في الماضي العلماء في بغداد وفي قرطبة وهذه من ضرورات الحياة لكل لغة من لغات الدنيا ٠

* * *

(١) كتبت هذه المقالة قبل ان تأسس المجمع العلمي بدمشق الشام ٠

هل اجبت في هذه الجولة سؤال الاستاذ ضومط ؟ ولا بأس – مهما كان من نتيجة ما قات – بكلمة اخرى فيها زيادة ايضاح . نعم . قد كتبت في اللغة الانكليزية اصف جمال الطبيعة في بلادنا كما كتبت في العربية (١) ولا يختلف اسلوبي في اللغتين الا في النظر الى الموضوع من الوجهة التي تُفهم ولا تستغرب تماماً . وفي بعض الاستعارات والآراء الاجتماعية التي تتخلل ما اكتب . فلكل لغة كما قلت روح يجتهد الطامع بشيء من شرف التأليف ان يملك بعضها . فتستملكه اذا فاز وتهديه . وفي هذا الفقير الى رحمة شكسبير والمعري روحان قضت بهما الولادة والهجرة . فاذا كتبت في الانكليزية افكر غالباً وأعبر عن فكري على طريقة الانكليز . فلا اقول مثلاً : « خيَّم الليل على المدينة » واهل هذه اللغة من غير اهل الخيام (٢) ولا اكتب باللغة العربية : « هزّ يده » لعلمي ان هز اليد عندنا لا يفيد المصافحة . وهذا مثل واحد من امثال لا حاجة الى تعدادها .

---

(١) ليطالع من همه الامر واحب المقارنة مقالة « وادي الفريكة » في الجزء الاول من «الريحانيات» والمقالتين : بلادي « Mine Own Country » وافاق وطني « My Native Horizon » في كتاب « The Path of Vision »

(٢) ولا تستحسن حتى شعراً . لانه يتغلب في معنى الخيام عندهم التعسكر والحرب والليل لا يجيء المدينة محارباً . ويتغلب فيها عندنا معنى الاقامة والاستراحة وهذا جميل في الاستعارة العربية ومفهوم .

الا اني اشير اشارة الى الفرق الا كبر بين لغتنا ولغتهم . وهو انا ننظر الى الاشياء غالباً من خلال المحسوس فتندر الحقائق المجردة في استعاراتنا . كأننا لا نفقه المعاني الا اذاصورت امامنا فتدركها الحواس منا قبل أن يدركها العقل . وهم ينظرون الى الاشياء غالباً من خلال المعقول فتندر الاستعارات في حقائقهم المجردة [1] والنادر دائماً عزيز . لذلك ترانا اليوم نجل الفكر فوق كل اجلال في التأليف فنبالغ احياناً في التجريد . وهم . رغم مدنيتهم المادية العملية . يرغبون في شيء من الخيال ويرتاحون بالاخص الى الاستعارات الشرقية . او ما استطاعوا رده منها الى لوح الوجود العام فيفهمونه .

اما الاستعارات المنوطة بمظاهر الاخلاق في الامة وبعاداتها وتقاليدها . فلا يفهمها غالباً غير ابنائها . ولا تروق سواهم . والترجمة الحرفية من لغة الى اخرى سمجة مستهجنة . واسمج منها التقليد في المحسوس دون المعقول . في الحرف دون المعنى . هذا المتنبي مثلاً . وله بين الشعراء عندنا المقام الاول . فلو ترجمنا

(١) نقول مثلاً حتى في الجرائد اليومية : خطفت يد المنية فلاناً . او هصرت غصن شبابه . تعكر جو الامن . ورى زند الضغينة . وهم يقولون : مات فلان . استتب الامن . ويجردون الضغينة من الزند والنار . في بساطة تعبيرهم دليل على منهجهم العقلي والعملي . وفي استعاراتنا دليل على « دوراتنا » في امور الحياة

بعض غلوه في مدح سيف الدولة الذي لا تغيب الشمس الا باذن منه. ولا غرو فهو رب الافلاك وقاهر النجوم. لضحكت من ترهاتنا الام

« وقد زعموا ان النجوم خوالد   ولو حاربته ناح فيها الثواكل »

(شيء محزن !)

« فما كان ادناها له لو ارادها   والطفها لو انـه المتناول »

(شيء مضحك جداً !)

بيد ان من غلوه ما لا يبكي ولا يضحك . بل من غلوه ما هو جميل ومؤثر جداً لانه مبني على حقيقة في الحياة يخبرها كل من تعددت احزانهم فلا يبالون بالجديد منها ولا اظن ان شكسبير او ملتن . او هوميروس ابدع في وصف هذه الحال من حالات النفس ابداع المتنبي اذ قال :

« رماني الدهر بالارزاء حتى   فؤادي في غشاء من نبال »

« فصرت اذا اصابتني سهام   تكسرت النصال على النصال »

على ان شكسبير لا يستعير في هذا المعنى النبال للغشاء . ومع ان ما يسمونه في الانجليزية المجاز المتباين يكثر في شعره فهو يتحرى غالباً التناسب . فلا ينسج غشاء من الحراب او من مادة صلبة . وشعراء الافرنج اكثر تناسباً . واقل غلواً . واقرب معقولاً في استعاراتهم وتصوراتهم منا . الا اذا جاءت في باب المجون والهزل . اما نحن فنجد حتى في « محاربة النجوم » .

* * *

وليست هذه اكبر عيوبنا اللغوية . قلت في بدء كلامي اني اتعشق هـذه اللغة . فلي فيها اذاً اماني يجوز الافصاح عنها . واماني الان ثلاث لا غير . قد ذكرت القاموس . ونبهت الى الالفاظ الفنية . واشرت الى ابي العلاء . فمن امانيّ اذاً :

اولاً ان يعاد تأسيس مجمع علمي لينظر في ما تحتاج اليه اللغة من الالفاظ الجديدة الفنية والعلمية فيجيزها بعد اعرابها وينشرها .

ثانياً ان يطبع المجمع العلمي او احدى شركات الطبع قاموساً عصرياً مجرداً من الالفاظ الوحشية والمترادفات البدوية والامثال التي لا تنطبق على حياتنا اليوم — قاموساً مجرداً بالاخص من المواد البذيئة كلها . ولا اريد بهذه اسقاط ما قد يتبادر الى الذهن من المفردات الجنسية . بل اريد — وكل من لجأ الى القاموس من الكتاب يعلم ما اريد . . . هل تخلو صفحة منها ؟ وكم من مادة لا تبدأ الا بها ؟ أوَ ما حان لنا ان نعفو تلك « الناقة » وتلك « الجارية » المسكينة من الخدمة في القاموس ؟ عار والله علينا — وآداب لغتنا تعد من آداب العالم الخالدة — ان تظل قواميسنا « حافلة بالوحشيات والبذاءات . وها اننا بدأنا نشعر بوجوب تعليم البنات وتهذيبهن . والمدارس المختصة بهن تزداد عدداً يوماً فيوماً . فهل بين قواميس اللغة ما يليق ان يستعملنه في دروسهن . او لا يحيط الكاتب علماً باللغة الا اذا حفظ الامثال المضروبة

بالناقة والجارية كلها ؟ ان امنيتي الكبرى ان ارى قبل ان اموت قاموساً عربياً عصرياً نظيفاً ٠

وثالث اماني ان ينشر احد الطابعين منتخبات من لزوميات المعري لان فرائده الشعرية ٠ ودرر فلسفته العقلية ٠ تضيع في الكثير مما تكلفه من الترهات اللغوية ٠ ومما تنحصر أهميته في احوال زمانه ٠ لذلك يقل من يطالعون اللزوميات ٠ ويكثر من لا يقرنون المعري بغير الكفريات ٠ فلو اخترنا من المجلدين الضخمين الف بيت مثلاً ونشرناها في كتاب جميل ٠ لمكنا الكثير من العلم بشعره علماً لا ينحصر بـ « غير مجد في ملتي واعتقادي »

و « في اللاذقية ضجة » بل يتجاوزها الى بليغ حكمته ٠ وسمو فلسفته ٠ وجميل ادبه ٠ ولا يظن اني اريد مجرد ما تدعى منها بالكفريات لا والله بل اريد مثل هذه الابيات :

« فلتفعل النفس الجميل لانه   خير واحسن لا لاجل ثوابا »

« والغيث اهنأه الذي يهمس   وليس له رعود »

« ارى اللب مرآة اللبيب فمن يكن   مرائيه الاخوان يصدق ويكذب »

« فشاور العقل واترك غيره هدرا   فالعقل خير مشير ضمه النادي »

ومثلها كثير من الحقائق والحكم التي لم ينطق بها نوابغ الافرنج ولا الفها الاوروبيون الا بعد الف سنة من زمن كانت معرة النعمان فيه كعبة الادب والشعر والعلم وكان ابو العلاء ربها « الضرير » البصير !

تعددت الاسماء والظلم واحد[1]

في التاريخ حقائق ينشرهـا الزمان — اضرت او نفعت — وان حاول كتمانها الانسان . ينشرهـا الزمان في اعادة الحوادث الاليمة والنهضات السياسية العظيمة . ومن هذه الحقائق ان من الشعوب ، قديماً وحديثاً ، في الشرق وفي الغرب ، من حاولوا مراراً ان يزيلوا بالقوة ما في الحيـاة من نقص وزيادة ، من اثرة وامتياز ، من ضعف وقوة ، من فقر وغنى ، فكسروا نير الطاعة وابوا الخضوع لسيادتي الشرع والدين . بل طالمـا خاض الشعوب بحراً من الدم والاهوال توصلاً الى ما كانوا يظنونـه كمالاً في الاحكام ومساواة بين الانام .

اما زعماء هاته النهضات — نهضات المساواة اكراهاً — فـلا شك انهم ينشأون صادقـين ويعملون بادىء امرهم مخلصين ، لا شك انهم يعتنقون مبادىء الكمال في الاجتماع والدين مقتنعين لا مخادعين ، ويقيمون انفسهم اسياد حكم جديد ، ورسل خـير

(١) من كتاب المؤلف عنوانه The Descent of Bolshevism تحدر البلشفية وقد نشر في اللغة الانكليزية

عتيد . علما منهم ان لا فوز بلا قوة ولا قوة بلا حكم مهما كان .

ولكنهم لا يلبثون ان يسيئوا استخدام القوة التي يلقونها طوع مشيئتهم في شعب ثائر وفي حكم لهذا الشعب جديد . اجل ان السيادة لتستغويهم فتغرهم . فتلعب بمطامعهم . فينقلبون وايما انقلاب لا على الشعب مصدر سيادتهم فقط بل على المبادئ ذاتها التي من اجلها امتطوا صهوة السيادة . يتلونون حيناً ويتطورون احياناً . ويمسخون في النهاية . فيتركون في التاريخ اثراً يذكر . ولا يشكر . اذ يحملهم في صف الاتوقراطيين اذا كانوا من الفائزين . او يحشرهم اذا فشلوا مع رسل الشعب الكاذبين

وهم في كلتا الحالين يستخدمون القوات السلبية في الاجتماع – قوات التجريد والتدمير – لنيل مآربهم . مدعين ان في ذلك تحقيق امال المولدين الكماليين . وكأنهم يقولون : لا بدعة بلا خربة تقوم عليها . ولا كمال بلا اضمحلال ينشأ منه . ولكنهم بدل ان يبنوا هيكل الاخاء والمساواة . هيكل الحقيقة والكمال . على خرائب الهيئة الاجتماعية التي دمروها يأسسون حكماً جديداً . لا في عدله بل في توزيع عدله . والتاريخ شاهد على ذلك . وحوادث الزمان الحاضر كذلك . (البلشفية اليوم تظلم طبقات من الناس عديدة لتعدل في طبقة واحدة . طبقة العمال . وعدلها هذا من نوع الانتقام) هذا ما اريد بالحكم الجديد في توزيع عدله فقط .

اما الحلم بالكمال الذي يمثل للانسان حكماً تاماً في عدله • مستوياً في ناموسه • شامـلاً في خيره • الحلم الذي يستنهض الشعوب من رقاد الاجيال والعبوديـة • ويدعوهم الى الثورة والقتال • الحلم الذي يضرم فيهم نار الجهـاد ويشعل في صدورهم نور الامل • ويقودهم راغبين الى الضحية • الى الاستبسال • الى الشهادة • الى الموت • بـل الى التدمير والتخريب بالسيف والمشعل — ان هذا الحلم لحي خالد في التاريخ • يجدد الجهاد من حين الى حـين في الامم • ويبعث الامال في الشعوب • وهـذا المبدأ مبـدأ « الرجعيات الابديات » لا ينفصل على ما يظهر عن مبدأ « التعمير بالتدمير » •

علينا ان ندوّن حقيقة اخرى • فمهما كان من اخلاص زعماء النهضة المؤسسة على هـذين المبدأين وطموحهم • ومهما كان من تطرف رسل المساواة • وتوحش رسل التدمير • فان الامـة التي يقلبونها ويبلبلونها تعود عاجلاً او اجلاً الى رشدها فتقيم القسط • وتعزز الشرع والنظام • وتؤسس على مبادي العدل والارتقـاء حكماً جديداً • يكون عدله اتم — وان كان لم يزل ناقصاً — من عدل الحكومات السابقة • اذ ان الامـة التي تخوض عباب الثورة تكتسب قوة ادبية وروحية توازي بل تفوق ما خسرته من قواها المادية •

وهذه الحقيقة في الثورات هي شواذ القاعـدة • ندونها

مسرورين . حامدين رب العالمين . اما القاعدة ذاتهـا التي يثبتها كذلك التاريخ هي ان كل نهضة سياسية . او ثورة اجتماعيـة . حاولت تأسيس حكم المساواة والاخاء بالقوة – بالسيف والخنجر . بالحراب والمدافع . حتى بتأليف الجوالي الاشتراكية – كان نصيبها من وجهة الكماليين الفشل التام .

والمتطرفون في هذا السبيل . مهما كان من فوزهم الموقت وسلطانهم البائد . يتدرجون غالباً في طريق سلكها كل ظالم في الدنيا . وكل مشعوذ في الدين . وان اثمهـم الاكبر لا ينحصر في دفـع الشعوب الى مهاوي الفوضى والاهوال . بل يتجاوزه الى حد تتدنس عنده المبادىء الكمالية الـتي يودون تأسيسها على القوات السلبية في الامـة – قوات الشك والنفي والجهل والعصيان . والقوات السلبية لا تولد شيئاً صالحاً يدوم طويلاً .

وهذه حقيقة من الحقائق التي ينطق بها التاريخ قديمـاً وحديثاً . كما سيرى قراء هـذا الكتاب اذ نقص عليهم قصص النهضات الفوضويـة . البلشفية . في الشرق الادنى وفي اوروبا . على كل سيادة دينية كانت او مدنية او ادبية . والفرق بين تلك النهضات ونهضات اليوم هو في المحيط وفي الاسماء فقط . وان رسل الكمال . وان شئت قل رسل الاهوال . هم هم قرامطة كانوا . او حشاشين . او بلشفيين . تعددت الاسماء والظلم واحد .

ومن يـنكر ان الظلم سبب كل ثورة وجهاد ؟ ولـكن الظلم

في الماضي كان متجسداً في الملوك والكهان . وهو اليوم متجسد في الزعماء والسياسيين . اجل قد كان الامراء ورجال الدين اسياد الناس في الماضي . اما اليوم فاسيادنا ارباب المال وزعماء العمال . وفي كلتا الحالين الامة التي تسود فيها الاثرة . ان في الصناعة او في الاحكام . تلجأ بعد صبر طويل الى التطرف بالمطالب المادية المؤسسة على القوات السلبية في الناس — قوات التجريد [1] والتدمير .



(١) اي تجريد اصحاب السيادة عن اسباب القوة والنفوذ كلها .

الثورة الحقيقية

انا عربي شرقي ثوروي . عربي اللسان . شرقي الروح . ثوروي المبدإ . عربي لايكره الترك . وشرقي لايزدري الغرب . وثوروي تهمه الكعبة مثلاً اكثر مما يهمه الدستور . انا ثوروي روحي واخواني وان قلّ عددهم كثيرون . سلاحنا من الله لا من معامل اوروبا . سلاحنا كلمة نقولهـا . رأيٌ نبديه . بذرة نزرعها في قلوب الناس .

انا عربي جنسيتي على لساني وفي وجهي وطي اضلعي . انا عربي . رمل البادية عزيز عندي كدم ابنائها وسيئات العرب اجمل في نظري من حسنات عبيد التمدن . انا عربي . ماضي بلادي حي في فؤادي ومستقبلها نور من انوار ايمـاني . وان قيل حلم هو فنعم الحلم احلمه صباح مساء عند اشراق الشمس وعند غروبها . وقد يحلمه في نومهم سواي من ابناء العرب فينسون انهم يحلمون مثل هذا الحلم الجميل او انهم يتناسون فيموهون .

انا عربي احلم باحياء مجد العرب في ظل الدستور كان او في ظل اعدائه . لا فرق عندي . وما الدستور وما الحكومة سوى آلات في يد علوية لاترى . فاذا انكسرت الآلة مثلاً او تعطلت يجددها صانعها اليوم ويستأنف العمل غداً . ومتى نوّرت اشعة الشمس زهراً . وأثمرت روائح الربيع ثمـاراً . واستحال رمل

البادية تبراً . وظلمة اديانها نوراً . وخيام ابنائها قصوراً . قل صح حلم حلمناه وتحققت آمال علم علمناه وعلمناه . ونحن في زمن عجيب تصح فيه اكثر احلامه . وتنبئنا لياليه بغرائب ايامه

في شمس البادية ورمالها شيء من مجد الاجداد لا يموت . وفي روح الزمان السامية علم لاتصد تياره الصحاري ولا تتجهمه الجبال . وعندما يقرن الله بين هـذا الذي لا يُصد وذاك الذي لا يموت — بين العلم الصحيح وهمـة العرب الشماء — قل صح حلم صوّره العقل والخيال ونفخت فيه الحقيقة نسمة الحياة والجمال .

انا ثوروي اوقف حياتي لثورة سلمية حقيقية لا لثورة كاذبة سياسية . ادعو الناس الى ثورة افكار واخلاق واداب واديان . اقول وحقـاً ما اقول ان اصلاح الشرق والشرقيين يتوقف على مقدمتين جوهريتين بدونهما تظل نهضاتنا مناهضات غايتها السيادة والاثراء . وينحصر اصلاحنا في تغيير الثياب والاعلام والاسماء .

ان في تصفية الدين وفي التفريق بينه وبين السياسة مقدمتين جوهريتين للاصلاح الحقيقي الذي يبتدىء فيَّ وفيك ايها القارىء ويتدرج الى سوانا . الى اولياء الامر فينا . الى رؤسائنا وحكامنا . اصلحوا الحياة في البيت وفي المدارس وفي المعابـد تصطلح الحكومة . ليصلح كل فرد نفسه فيصطلح المجموع . قلت هذا مراراً وسأقوله دائماً في مثل هذا الموضوع .

انا عربي حر . وليست حريـتي من فضل الدستور ولا من

مكارم اخواني الأتراك . حريتي من الله . واذا فقدتها فانا المسؤل في ذلك لا الحكومة . ومتى بدأ الشرقي يشعر ان حريته من الله لا من الحكام والرؤساء . وان دينه لله ولا شأن فيه للعلماء . والمتنطعين . بشر الشرق اذ ذاك بنهضة اجتماعية حقيقية عظيمة .

لست بناكر ان في الشرق اليوم نهضة فكرية بدت آثارها في اطرافه وفي اواسطه في اليابان وفي الهند والصين وفي بلاد العرب . ولكنها مادية سياسية ولّدتها تجارة الغربيين وشيدت اطماعهم معالمها . بل هي نهضة نرى للاوروبيين فيها اليد الطولى فهم القابضون على زمامها . وهم اسياد زعمائها . ومع ذلك نرى فيها ثمرة قد يجنيها ابناء البلاد اذا اصلحوا اخلاقهم ونبذوا ربقة المتنطعين من رجال الدين . والمستأثرين من الحكام . والمشعوذين من السياسيين . ونهضوا مسلحين بحرية حقيقية هي منحة الله لا منحة الدستور . اما هذه الثورات السياسية التي يضرم نارها اصحاب الاطماع والسيادة ويشن غاراتها ذوو الزعامة الدينية فلا خير فيها لاحد من الناس .

هذه ثورة اليمن مثلاً . فهي مهلكة للترك والعرب . هي ثورة احقاد جنسية واغراض سياسية . فريق فيها سلاحه الاثرة وفريق سلاحه الجهل . نرى الاتراك فيها يضربون اعناق البدو بسيف الحرية . ويحشون امعاءهم بقنابل المساواة . ونرى العرب وزعماءهم حاملين على الدستور باسم الخلافة والدين . فاين العدل

اذًا في سياسة الترك وابن العقل في ثورة العرب ؟ لا وربي • ان الحق في هـذه الفتنة محتجب احتجاب الشمس ابان الزوابع والاعاصير • ومهما كانت نتيجتها فـلا يستقيم الامر ويمهد سبيل الثورة الحقيقية • او بالحري الانقلاب العظـيم • الا اذا اصلح الترك سياستهم وفهم العرب دينهم •

الثورة الحقيقية ونحن من انصارها • من رسلها •.انمـا هي التي يزرع الزمان بذورها في قلوب الناس وفي عقولهم • بل هي التي يشعل الله نورها في ارواح البشر • هي الثورة التي يتقدمها ري العراق مثلاً وسكة الحجاز • وحريـة الطباعة • والتجارة والتعليم • هي التي تنمو في الجامعة نموًا هادئاً ثابتاً بطيئاً كما ينمو النخيل في الرمال • هي التي تبتدئ في البيت • وفي الحريم • وفي المدارس والمعابد • هي التي يحمل بنودهـا اصحاب الاراء السديدة وانصار المبادئ القوية الجديدة • هي التي تنشر رايـة العلم الصحيح في معاهد التعليم وراية الحق في دوائر الحكومة • هي التي نفادي من اجلها بارواح احرار لا غرض لهم في تعشق الحرية غير تعميم نعمائها بين الشعوب •

الثورة الحقيقية او بالحري الانقلاب العظيم هو الذي يساعد في ارتقاء الاشياء والحياة مما هي الى ما ينبغي ان تكون • مثل هذا الانقلاب يصلح حال الترك ويصلح حال العرب • بل يصلح الشرق كله والشرقيين •

الولايات المتحدة • اذار سنة ١٩١١

حكومة المستقبل

حكومة صغيرة الا في عدلها . حكومة محدودة الا في صلاحها . أدع اليها الناس . وبشر بها الناس . سيحبل بها الفجر . سيلدها النور . فتترعرع في حجر العلم . وتتغذى من ثدي الادب والدين . هي آتية وكل آت قريب . حكومة جغرافية طبيعية لا امر فيها ولا كلمة لغير من نشأ في أرضها – بشر بها الناس . حكومة ادبية روحية لا أثرة فيها لغير الحق ولا سيادة لغير الامانة والاخاء والسلام – أدع اليها الناس . وسيكون حكامها من امراء الحكمة والفلسفة والفنون . وسيكون شعارها الحكومة للرعية لا الرعية للحكومة . بشر الناس بحكومة المستقبل .

....

على ان بعض السياسين والاقتصاديين يعتقدون ان العلم في اكتشافاته واختراعاته ليضمن في المستقبل سلامة الممالك العظيمة بل يعتقد غلاة القائلين بفضل الاستعمار الدولي ان المستقبل انما هو لمثل هذه الممالك المترامية الاطراف الرافعة راياتها ومدافعها فوق السود والصفر والبيض من الشعوب . وان الممالك الصغيرة ستنقرض انقراضاً قليلاً قليلاً . فتتوارى جنسيتها في جنسية الغالبين السائدين . ويتلاشى استقلالها في ظل من في ايديهم اليوم

صولجان العلم وصولجان الثروة . وبعبارة اخرى ستجذب الممالكُ الكبيرة الممالك الصغيرة فتبتلعها كما تجذب المذنبات النيازك . واحوال شعوب الارض المستضعفة تؤيد اليوم هذا الرأي . تؤيده الى حين . تؤيده الى ان يشرق عليها نور العلم الصحيح والحرية الحقيقية . والعلم والحرية لا جنسية لهما . ليست الحرية ملك ابائكم ايها الرافعون في بلادكم منارها . السادلون في مستعمراتكم ستارها . انما انتم واثقون بمن قد يخونكم . وما خان العلم الا من أساء استخدامه . اليوم يخدمكم يا أسيادي وغداً يخدم عبيدكم واعدائكم . وحين يقبل العلم بوجهه على الشعوب الصغيرة المستضعفة يكبر رويداً رويداً قصدها . ويشتد ساعدها . فتنتبه الى كنوز أرضها ومعالم ثروتها . وحسبها ان ترى في البدء مطلع العلم والحرية . اذ ما من امة وقفت في ضياء الفجر فآثرت على الاقدام الرجوع الى الظلمة .

وقد فات اولئك السياسين والاقتصاديين أن الممالك انما تقوم بالرجال . وبالفكر . وبالطاعة . وان رجال اليوم لا ينصرون الحكومة قلباً وقالباً . ولا يخدمونها . ولا يطيعونها . ان لم يكن لهم فيها ومنها منفعة خصوصية . جرد الدولة البريطانية من مستعمراتها مثلاً فتتزعزع الحكومة في لوندرا . وينهض جيش عرمرم من سباهلة المأمورين . من ابناء الدواوين المقفلة . فيقلبها ويدك عرشها في ليلة واحدة . بل جرد المستعمرات من جنود

الاحتلال فتعود السيادة دفعةواحدةالى اصحابها الشرعيين . لا .
ما لي والشرعيات وجل العاملين فيها ان كان عندنا او عند
الاروبيين يؤثرون خير السائدين على خير المسودين . ويرفعون
على مصلحة الامة مصلحة الاعيان والمتمولين . لو فرضنا اذاً
ان جنود الدول الاروبية عصوا في المستعمرات أوامر ضباطهم
وحكوماتهم تعود السيادة عاجلاً الى اصحابها الطبيعيين —
والحقوق الطبيعية قبل الحقوق الشرعية — ويتقلص ظل الممالك
الضخمة العريضة حتى مراكزها الجغرافية الاصلية .

أجل ان الدول العظيمة . ذات الشوكة والصولة والاقتدار .
تعود دولاً صغيرة اذا عصى الجيش أوامرها . بل تتقوض اركانها
اذا ولت بدل ابنائها في المستعمرات رجالاً منها . اي من البلاد
التي ترفع فوقها اعلامها ومدافعها . ولا أشك في ان رؤساء الدوائر
وابناء الدواوين بل عبيدها اذا عزلوا اليوم يصبحون غداً في
قاعدة بلادهم من معاندي الحكومة ومنابذيها . فالقوة المؤسس
عليها مجد هذا الملك الضخم العظيم انما هي قوة اصطناعية تزول
رويداً رويداً كلما ازداد انتشار العلم في الشعوب والامم .

. . . .

كلما ازداد المرء قوة من نفسه كبر قصده وعظمت همته . قف
معي عند هذا . قلت كلما ازداد المرء قوة من نفسه . ولم اقل من
الحال التي هو فيها — من اصحابه او محبيه . او من منصبه او من

ثروته – بل من نفسه . من داخل قلبه . من ذلك المصدر الخفي الالهي الذي لا تبلغه يد الناس ولا يد الحكومة . كلما ازداد من مثل هذه القوة الحقيقية ابتعد عن كل قوات العالم السياسية الخبيثة . وبكلمة اخرى ان المرء . متى نشأت فيه طبائع الحرية الفردية الروحية . لينفر من هاته الطواحين السياسية التي تحاول طحن ارادته وسحق ذاتيته الروحانية العالية . واننا لنرى اليوم شيئاً من هذا التمرد والتنابذ في من هم اساس الملك وعموده في الجنود وفي الجماعات .

كان الخوارج في صدر الاسلام يقولون لا حكم الا لله . وهذه كلمة حق قالها اناس قوة اسيادهم من الجماعــة لا من انفسهم . وقوة تلك الجماعة نشأت في تلك الايام من احوال ليست طبيعية . كانت للخوارج يوماً وعليهم ابداً . وذلك لان الكلمة الكبيرة (لا حكم الا لله) كلمة لا يحق لجماعة ما اتخاذها دستوراً الا اذا كان أسياد بل افراد تلك الجماعة في درجة من الرقي يعرف فيها كل نفسه . ويعرف حقيقة الله كما تتجلى في الا كوان . وفي الاشياء . وفي الناس . ويعرف فوق ذلك ان من يخدم اخاه الانسان من تلقآء نفسه انما هو خادم نفسه . لا حكم الا لله . يحق لي ان اقول هذا القول متى كانت سنة الله ثابتة فيَّ . سائدة عليَّ . آخــذة بمجامع قلبي وعقلي . مشترعة لنفسي . مقضية في أعمالي ابداً واقوالي . وما هي سنة الله . في كتب الدين نجدها . وفي كتب

العلم • في سفر التكوين • وفي سفر الفيزيولوجيا • في علم الصحة • وفي علم الادب • في نذر الانبياء • وفي نصح العلماء نجدها • في النملة وفي الافلاك وفي الانسان نجدها • على ان هذا ليس من مبحثي الان •

ومثل ما قال الخوارج في صدر الاسلام : لا حكم الا لله يقول المصلحون في اوروبا اليوم لا حكم الا للجماعات • ويالها من جولة اسمعتنا نعيق الزعماء في الارض • بعد ان ارتنا قبساً من الانسان في السماء • واني لأجد في هذا السقوط من العلويات الالهية الى حضيض الجماعات شيئاً من التقدم والتحسين في الاحكام • اللهم اذا كانت انفس الزعماء والمصلحين كانفس الخلفاء الراشدين وامثالهم • على ان ما قلته في الخوارج يصح نوعاً في الجماعات • بل قد يكون الصلاح والامانة والاخلاص في زعماء الجماعات اقل جداً مما كان منها في زعماء الخوارج • ولكن الاحوال التي تكتنف الجماعات اليوم وتتكيف في حياتهم تكثر فيها وسائط التهذيب والتربية • واذا كانوا غير اهل لان يقولوا اليوم كلمتهم المشهورة • ويتخذوها شعارهم • فهم اهل لذلك غداً • اجل ان يومهم لآت • وانه على الممالك العظيمة الاثيمة ليوم شديد عصيب •

الملك يضعف بالنسبة الى ازدياد عدد الافراد الاقوياء الامناء في الجماعات • اولئك الذين يزدادون قوة من باطن حالهم • من

اعمالهم • من حريتهم • من صلاحهم • فيحررون انفسهم ولا يكون في ذلك شيء من الفضل لاحد من الناس سواهم • اولئك الذين يرفعون ذاتيتهم الروحانية الادبية فوق كل سلطة مادية تحاول قتلها او ايقاف نموها • اولئك الصالحين المتمردين كلما ازداد عددهم في العالم ضعفت الممالك الطاحنة • وتقلصت رويداً رويداً اظلالها المهلكة •

وهذا ما يثبتني في اعتقادي ان المستقبل انما هو للحكومات الصغيرة • الكبيرة في عدلها ونزاهة ولاتها • للممالك الحقيرة القويمة المنهاج . لا لتلك العظيمة الاثيمة • ولا يدهشنك قولي ان الحكومات المحلية المستقلة كل الاستقلال بل الحكومات المدنية المركزية هي التي لا بد للاجيال الجديدة المستقبلة منها . واني لمؤكد ان مدنية المستقبل انما هي تلك التي تكون حكومتها منها وفيها ولها على الاطلاق • وتكون صغيرة محدودة لا اطماع سياسية لها ولا دولية . حكومة محدودة الا في صلاحها . حكومة صغيرة الا في عدلها . حكومة ادبية روحية لا أثرة فيها لغير الحق • ولا سيادة لغير الامانة والسلام . حكومة اساسها هذه الكلمات — انما الحكومة للرعية لا الرعية للحكومة .

وهذه في مدنية المستقبل حكومة المستقبل . وهي كائنة اليوم جنينا في الشعوب الصغيرة وفي الجماعات • هي كائنة وكل كائن آت . هي آتية وكل آت قريب . فادع اليها الناس وبشر بها الناس •

الصوم

للصوم اسباب صحية واقتصاديــة ودينية ٠ منها طبيعة الاقليم . والقحط في الاحايين . والادواء التي تتفشى دائمـاً في الربيع . والغاية من جعله طريقة دينية هي ولا شك تعميم فوائده . فالناس في الماضي لم يكونوا ليعرفوا من المفيـد والمضر الا ما اوجبه الدين او اجازه او ابطله . لذلك ادخل الحكماء والمتشرعون الصوم في الاصول الدينيـــة . والوثنيون اول من فعلوا ذلك . ومن المعلوم ان قواعد الدين واصوله مبنية كلها على مبداء الثواب والعقاب – على جنة وجحيم في غير هذا العالم . ومعلومٌ أنّ كل عمل يعمله المرء انما جزاؤه منه وفيه . فاذا عمله لغـير ما فيـه من الفائدة الناشئة عنه يمسي تقليداً مضراً فاسداً .

اذكر أني قرأت عن احدى قبائل الهنـد انها كانت تصوم صوماً طويلاً مضنكاً فكان العدو عدوها يغتنم هـذه الفرصة فيغزوها بعد صومها ويتغلب عليها . ان مثل هـذا الجهل . ومثل هذه المبالغة في اماتـة النفس وانكار الذات . ليفسد في الصوم غايته الاصلية الاولى .

وفي قواعد الازدرشتيين على المجوسي ان يصوم بل يطوي

بضعة ايام في الربيع . كلٌّ على طاقته . وهم لا يزالون مثابرين على الصوم ومنهم من يسعى لنشر هـذا المذهب في اميركا اليوم . ويدعى دينهم المجوسي الجديد «مازِدَه» وهو دين فلسفي الهي . وقد اجتمعت هنالك ببعض المزديين وطويت على طريقتهم بضعة ايام في الربيع فرأيت في العادة فائدة كبرى فاتبعتها . ومن الاميركيين انفسهم من يطوون عشرين وثلاثين يوماً . وقد قال ابن خلدون انه يعرف . او انه سمع ممن يعرفون . اناساً يطوون اربعين يوماً وما يزيد .

اما التنحس (اي الانقطـاع عن اللحم) في الصوم فاصل الطريقة من الهند . ونذكر ان ابا العلاء المعري اتهم بدين البراهمة لتنحسه اربعين عاماً . وفي اوروبا واميركا اليوم طائفة كبيرة من المتنحسين . وفي لندن وباريس وبرلين مطـاعم مآكلها كلها من البقولات والخضر والحبوب مطبوخة وغير مطبوخة .

الصوم اذًا والتنحس مبادىء صحية فلسفية أدخلها الحكماء في قواعد الدين ليستفيد بها الناس اجمعون . ولا ننكر ان للصوم فوائد معنوية روحية فوق فوائده الصحية . فهو يعلم المرء استخدام ارادتـه وضبط نفسه . ويعوده انكار الذات واحتقار الذات . ويعـده ايضاً في بعض المذاهب بغفرانات لا علاقة لها بمعناه الروحي ولا بفوائد الصوم الصحية .

فالصوم والتنحس مدة محدودة يطهران المعدة والدم ويهيئان

الجسم الى فيضان الحيـاة في الربيع او ما يسميه العامة « جري الماء » الذي يعم كل حياة آليـة من نباتية وحيوانية . في فصل الشتاء تتقلص نوعاً العروق والشرايين ويبرد الدم ويخمد فيبطأ في دورانه ثم يجيء الربيع فتلين العروق وتتمدد فيصعد الصبيب في الاشجار وتتجدد السرعة والنشاط في الدورة الدمويـة في الحيوان والانسان . فاذا كانت المعدة خامدة — ولا بد من خمودها اذا أُشغلت كثيرًا ايام تبطـأ الدورة الدموية — واذا كان الدم بطيئاً في سيره لايحمل كل ما تهيئه المعدة من الغذاء فيكثر عنـد دخول الربيع الاخلاط في الجسم والنفاط . لذلك كان الاقدمون الذين لم يهتدوا الى طريقة الصوم يلجأون الى الحجامة والفصادة كل ربيع . وفي البلاد المتمدنـة حيث أُبطل الصوم يكثرون من المساهل والمرطبات . ومن الغريب ان اللبنانيين اليوم وهم يصومون صياماً طويلاً لم يزالوا يفتصدون في الربيع . ولست ادري لمَ الفصـادة اذا واظب المرء على الصوم واحسن طريقته اي جعل الغاية الاولى منه علمية صحية . فيقلل الأكل وينقطع عن اللحم ويكثر الرياضة . واني لاعجب ممن يصومون اماتة وورعاً ويجعلون إفطارهم مقدار غدائين وثلاثة . فيأكلون الظهر او بعد نصف الليل كالرومانيين في مآدبهم . فاين الفوائد الروحية والصحية من مثل هذا الصوم ؟

ولعمري ان الذنب في هذا الصوم المضرّ ذنب ارباب الدين

ولهم ما لهم من السلطان على ارواح المؤمنين وابدانهم • فكان ينبغي عليهم ان يعلموا الناس كيفية الصوم ويشيروا الى فوائده كلها المادية والروحية • ولكن ارباب الدين اليوم يمالئون الناس في اميالهم ويتذرعون باسباب تافهة ليعفوا المؤمنين اذ لا يستطيعون اكراههم •

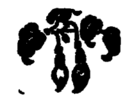
اخذت الكنيسة الكاثوليكية هذه الطريقة طريقة الصوم عن الديانة الوثنية واخذت عنها طرقاً اخرى مفيدة قبل ان تغلبت عليها • اما مغزى الصوم الديني واهميته فالفضل فيهما لسياحة المسيح اربعين يوماً في البرية • ولم يكن له اي للصوم في ايامه الاولى شبه وجه من الاماتة التي تبطل اليوم معناه • ولم تكن محدودة ايامه • بل كان كل انسان يصوم طاقته يوماً او يومين او اربعين يوماً وفي الجيل الخامس لم يتجاوز مدة الصوم عند المسيحيين الستة والثلاثين يوماً ثم صارت الى الخمسين وثبتت عليها عند اللاتين • اما الكنيسة الارثوذكسية فلم ترضَ بصوم واحد واثنين بل جعلت اصيامها ثلاثة مدة اثنين منها كلٌ اربعون يوماً •

ومن اهمل الصوم في الماضي كان يحرم نعماً روحية عديدة ويعاقب فوق ذلك عقاباً شديداً . وفي عهد (شرلمان) كان يحكم بالموت على من لا يصوم الصوم كله . ومن اهمله مرة او مرتين تقلع اسنانه •

اما اليوم فلا خوف على اسنان من لايصوم ولكن الخوف كله على معدته وآدابه .

وجدير بالذكر ان الكنيسة الانكليكانية لم تزل تواظب على الصوم مواظبة شديـدة . ولذلك اسباب لا صحية على ما اظن ولا روحية . معلومٌ ان انكلترا بلاد بحرية والسمك فيها كثير ... وكم من طريقة وثنية افادت تجارة مسيحية !

وعندي ان الاحكام القديمة في الصوم خير من هذا التساهل الذي اضاع مزيته الدينية وفوائده الصحية معاً . وهذا مما يدعو الى الاسف . فحبـذا المؤمنون لو صاموا صوماً علمياً صحياً . فقللوا من الاكل . واكثروا من الرياضة . وانقطعوا عن اللحم . ليريحوا المعدة ويطهروا الدم قبل فيضان الحياة في الربيـع .



هباسيا

١

«مهد العلم الحديث»

* * * *

القي الرواية جانباً . سيدتي . فاقص عليك قصة حقيقية . محورها المرأة والعلم وقطرها الظلم والتعصب . تعالي معي احدثك ماشياً فتفهمين كلامي ماشية . انا الان في حي الاعيان من المدينة وها قصر الملك امامنا . وبالقرب منه المتحف الشهير الذي بناه احد الملوك الفاتحين . وفي هذا المتحف دار العلوم التي يؤمها الطلبة من كل حدب وصوب . من الشرق يأتون ومن الغرب . ومن الجنوب ومن الشمال ليتلقوا العلم والفلسفة من امرأة عالمة حكيمة .

أقف بك . سيدتي . امام هذه الكلية العظيمة . كلية لا شرقية هي ولا غربية . اقف بك امام هذا المعهد القديم — وهو مهد العلوم الحديثة — الذي شيده الامراء وخلد ذكره المؤرخون والشعراء . ما ابهى هذه الرواقات وقد غصت بالطلبة من كل اجناس الناس والطبقات . وما اعظم هذه المكتبة وفيها ما يربو

على الاربعمائة الف مجلد . ولكنها وا اسفاه ستوزع على الحمامات بعد حين . ولا يعصى العلم على ابن العاص ! ولا الاربعمائة الف مجلد تقوى على كتاب واحد . ان لله في خلقه وفي كتبه شؤونا .

نعم . سيدتي . نحن في سراديب التاريخ فلا يهولنك ما وراءنا وما امامنا من الظلمات . على اني اقف بك موقف النور لنذرف دمعة على العلم وعلى احدى نسائه العاملات.

ليست المكتبة اعظم ما في المتحف العظيم بل هناك دوائر اخرى سترينها . هذا المرصد الفلكي الذي يبعد الانسان من الخرافات ويقربه من الله . وهـذا المعمل الكيماوي حيث الملك نفسه كان يشتغل بضع ساعات في النهار باحثاً عن اكسير الحياة . وهذه دار التشريح ولا اظنك تحبين ان تدخليها . وقد تتعوذين اذا اخبرتك ان الاطباء فيها يشرحون الاحياء ايضاً ممن حكم عليهم بالاعدام ابتغاء التوصل الى الحقائق الطبية الراهنة . لا تتكرهي . سيدتي . فقتل المجرمين خير من قتل الابرياء .

تعالي فاريك جنينة الحيوانات وبستان النباتات حيث الطلبة يتعلمون من الامثال الحية علمي النبات والحيوان . ولا تظني ان التعليم في هذا المعهد العظيم ينحصر في العلوم الطبيعية فقط . بل يتناول ايضاً العلوم العقلية والروحية . فان هذا المعهد لكمثل معاهد العلم كلها — انما هو مهد الحقائق والاضاليل معاً . ورُبَّ حقيقة تشعل الاوهام نورها . ورب اوهام كبعض الاطيار تبيض

بيوضها في عش الحقائق . فقد نبغ في هذا المعهد العلمي المتشرعون واللاهوتيون والاطباء والفلاسفة والعلماء .

لا ، ياسيدتي . ليست كلية (اكسفرد) هذه ولا معهد (الصربن) . لسنا الان في لندرا او في باريس . انما نحن في المدينة التي ولد فيها العلم الطبيعي واللاهوت المسيحي تحت سقف واحد فتخاصما وتنازعا طويلاً وكان من شأنهما في قديم الزمان ما كان . انما نحن في قاعدة البلاد المصرية . في باريس الزمان القديم . في الاسكندرية على عهد الرومان . والمتحف الذي وصفت فروعه العلمية هو الذي شيده (بطليموس سوتر) وابنه (فيلادلفوس) وكان المليكان يدرسان ويعملان فيه مثل سائر الطلبة والعلماء .

المؤرخون متفقون في ان كلية الاسكندرية هذه كانت في زمانها اعظم معهد للعلم في العالم . كيف لا ومن مرصدها رصدت النجوم والكواكب التي استنار بها فيما بعد من علماء اوروبا الفلكيون . كيف لا وفيها وضعت فلسفة (ارسطاطاليس) الاستقرائية موضع العمل وكان من ثمارها ان معهد (بطليموس) هذا اضحى مهد العلوم الحديثة . ومَن من علماء اليوم ينكر فضل (ارخيميدس) في الرياضيات ؟ ومن لا يذكر (بطليموس) و (آبولونيوس) و (هباركوس) في علم الفلك ؟ ومن لا يعرف (اقليدس) ومبادئه في الهندسة التي يتعلمها الطلبة في المدارس حتى اليوم ؟ وقد لا تعلمين . سيدتي . ان (اراتوسينوس) وهو

من علماء هذا المعهد ايضاً . قاس الارض قبل علماء الخليفة المأمون . واكتشف شكلها الكروي قبل (كبرنكوس) و (غاليلو) وان (هيرو) اخترع آلة بخارية قبل (جان وطس) الانكليزي . وان (تيزيبوس) اول من اخترع ساعة مائية . وان (يوليوس القيصر) بعث يطلب من هذا المعهد الاسكندري (سوسيجينوس) الفلكي ليصلح له الروزنامة الرومانية على الحساب الشمسي . فالمعهد الذي ينبغ فيه مثل هؤلاء العلماء العاملين . لا شك . عظيم . واعظم منه من كانوا يلقون فيه الدروس العالية .

٢

— الفيلسوفة العذراء —

ومن هؤلاء . سيدتي . الفيلسوف (ثيون) الذي درس الرياضيات في القرن الرابع (ب م) وراقب كسوفاً سنة ٣٦٥ وألف في الفلك والطبيعيات تآليف درست كلها . ولكن اعظم تأليف (ثيون) واعماله انما هو ابنته البارعة هباسيا . ولدت هذه الفتاة في الاسكندرية . وقرأت العلوم على ابيها . وكان لها ميل خاص في الرياضيات والميكانيكيات . وقبل ان وقفت حياتها على العلم والتعليم سافرت الى اثينا وتلقت هناك الشريعة والفلسفة . ورافعت في المحاكم . ونشأت نشأة عجيبة دلت على مقدرة عقلية فيها تضاهي مقدرة اعظم الرجال . ولما توفي ابوها كانت قد

تمكنت من العلوم وبرهنت في مواقف عديدة على تضلعها ورسوخها في الرياضيات والفلسفة . فرقيت في العشرين من عمرها وهي عذراء الى منصبه . وظلت تعلم في المتحف الاسكندري اربعين سنة . فهاج اخيراً عليها هائج الجهل والتعصب فقتلها شر قتلة كما ستعلمين .

هباسيا زينة نساء الاسكندريـة في تلك الايام . ورئيسة الفلسفة الافلاطونية . وصديقة الامراء المحبـين للعلم والعلماء . ومرشدة الحكام . وعدوة التعصب والخرافة . كلنا نسمع بالملكة (كليوباترا) الداهية الفاسقـة . ولكن من منا يسمع بهباسيا العالمة العفيفة العـذراء ؟ في المتحف الذي وصفته كانت تلقي دروسها على الالوف من الطلبة وفيهم الاعيـان والاغنياء واللاهوتيون . في ذاك المتحف كانت تعلم بافصح لسان واجلى بيان فلسفة (افلاطون) الجديدة الـتي تدعى في تاريخ الفلسفة « نيوبلاطونيزم » . في ذاك المتحف الذي شيـده (بطليموس) رفيق الاسكندر اثارت هباسيا انواراً اطفأها الجهل والتعصب فظلت بعدئذ اوروبا تعمه في الظلمات احد عشر قرناً .

وقد كانت هذه الوثنية الفاضلة رائعة الجمال . فصيحة اللسان . شديدة العارضة . سديدة الرأي . سريعة الخاطر . شريفة الشمايل والخصال . وان آباء الكنيسة انفسهم ليعترفون لهـا بذلك . على انها كانت تتعب فكرها عبثاً في مسائل قد تشغل الفلاسفة بعد

الفي سنة من اليوم كما اشغلتهم منذ الفين مضت . من اين الحياة والى اين ؟ فان هباسيا . سيدتي . امد الله بحياتك واثارها . كانت تحاول حل هذا اللغز القديم العظيم . ما هو العقل ؟ وما هو العالم ؟ وما هو الله ؟ — في مثل هذه المواضيع الخطيرة كانت الفيلسوفة العذراء تلقي دروسها وخطبها . والحقيقة ان فلسفة الاسكندرية في ايام هباسيا وقبلها انما هي مزيج من فلسفات اليونان كلها كفلسفة المشائين والرواقيين والكلبيين وغيرهم .

ومن تلاميذ هباسا الذين حازوا شهرة في زمانهم (سينيسيوس) اسقف عكا . وقد بعث هذا الاب الفاضل برسائل عديدة الى ابنة (ثيون) البارعة . فيها ثناء جميل عليها واعتراف بفضلها وجميلها عليه . ولم تزل هذه الرسائل محفوظة . وفي احداها يستشير المراسل استاذته في عمل الاسطرلاب دليل انها كانت تميل الى علمي الفلك والميكانيكيات اكثر من سواهما . وقد ألفت كتاباً وشرحت كتب (آبولونيوس) في هذه المواضيع . ولكن ابن العاص الذي جاء الاسكندرية بعدئذ لم يرَ فيها وفي الالوف مثلها كبير فائدة فوزعها على الحمامات لتسخن على نارها المياه . برد الله مثواه .

قد شهد المؤرخون لهباسيا الوثنية بالعفة والنزاهة كما شهدوا لها بالفضل والعلم والحكمة . وهم متفقون في انها عاشت وماتت عذراء . واما ما قاله (سويدس) في انها اقترنت بالفيلسوف

(ازيدوروس) فلا صحة له . وقد قيل انه محض اختلاق وافتراء .
والنامون منذ البدء كثيرون . فالاسقف (سينيسيوس) اول من
اعترف بفضلها وعلمها . وعندما تعرف بها واخذ يحضر محاضراتها
كانت اضحت في الاربعين من عمرها وكانت قد قضت في المتحف
عشرين سنة تخطب وتعلم . وظلت الصداقة بين الفيلسوفة الوثنية
والاسقف المسيحي نقية الاسباب وثيقة العرى . فلا هباسيا
اعتنقت الدين المسيحي ولا (سينيسيوس) خلع ثوبه الكهنوتي
(على اني قرأت في أثر لاحد اباء الكنيسة ان اسقف عكا لم
يقتبل قواعد الدين المسيحي ولم يعترف بعقائده كلها . فهل في
ذلك دليل على ارجحية الفلسفة في كفة ميزانه ؟ الله اعلم)

اما في سلوكها ولبسها ومعيشتها فقد كانت آية البساطة
والجمال . واني لاتخيلها واقفة امام تلاميذها بثيابها البيضاء المهلهلة
وقد عقصت بشريطة من الحرير شعرها . وسدلت على كتفها ذيل
ردائها . وفي رجلها العارية نعل يونانية بسيطة . فلا قبعة تثقل
رأسها . ولا مشد يضعف رئتيها وقلبها . ولا كعباً عالياً يضر بعمودها
الشوكي وبمجموع اعصابها . آية في البساطة والبراعة والجمال !
وحبذا لو عادت نساء اليوم . سيدتي . الى الزي اليوناني القديم
البسيط . خمسة اذرع من القماش الكتان الرقيق خير من عشرين
ذراعاً من الحرير الثقيل المخيط على آخر « موده » فلا تثقلي
وتشددي جسمك . سيدتي . كما لو كان جسم عدوتك . ناهيك

بامر الاقتصاد والتوفير . على اننا لسنا الآن في موضوع الازياء والاقتصاد .

لنعد الى هباسيا . وقد وصلنا الى ما يثير الاحزان من امرها فان هذه العالمة الحكيمة التي كان يكرمها الاسكندريون الراقون ويستفتيها العلماء العاملون . ويستشيرها في امور السياسة الحكام لم تنجُ من كره المتعصبين من المسيحيين . فبعد ان خدمت العلم والفلسفة اربعين سنة خدمات جليلة ماتت موت الشهداء على افظع طريقة وانكرها كما ستعلمين .

٣

— البطريرك كيرللوس —

لم تكن الاسكندرية في ذاك الزمن مهد العلوم المادية فقط بل كانت عش الكلام ايضاً والسفسطة . وبينا كان (نستوروس) و (كيرللوس) يتنازعان في عقيدة عبادة العذراء و (اثناسيوس) و (آريوس) يتناقشان في عقيدة المشيئة الواحدة والمشيئتين . كان علماء الاسكندرية يشتغلون هادئين باكتشافاتهم واختراعاتهم . ومن آباء الكنيسة الذين اشتهروا بالفصاحة والعلم . وبالتعصب والدهاء . وبالمعاندة والمكابرة . الكاهن (كيرللوس) الذي كان بطريرك الاسكندرية على زمن هباسيا . فبينا هي كانت تلقي دروسها في العلوم والفلسفة على الالوف من الطلبة كان (كيرللوس)

يثير من على منبره خواطر النصارى على اليهود . ولما ارتقى الى المنصة البطريركية في الاسكندرية كانت هباسيا في اوج شهرتها وقد تجاوزت الخمسين من عمرها . ومنذ ذالك الحين الى ان قتلت لم يطب للبطريرك عيش ولم يسغ له شراب . وان امره في التعصب والحقد والاستبداد مشهور لدى المؤرخين . فحينما ذهب الى افسس ليناقش (نستوروس) في عقيدة العذراء استصحب زمرة من رعاع الاسكندرية حتى اذا ضاقت به ابواب الجدال هاجم على عدوه . وعندما تبوأ كرسي السيادة طرد اليهود من الاسكندرية وبعث بعسكر على معابدهم وبيوتهم فنهبوها ودمروها وارتكبوا من الفظائع فيها ما تقشعر لهوله الابدان .

ولا يخفى عليك ياسيدتي ان البطريرك في تلك الايام كانت له قوة الحاكم المدني . فان فرقة من الجنود كانت دائماً موقوفة لخدمته لتنفيذ اوامره . على ان محافظ البلد (اورستيس) لم يستطع صبراً وسكوتاً على هذه الفظائع التي ارتكبها (كيرللوس) باسم الدين . فناهضه برهة وكانت هباسيا في هذا الخصام نصيرة المحافظ بل نصيرة الحق . واستمر هذا النزاع الى ان حدث الحادث الهائل الذي اودى بحياة ابنة (ثيون) العالمة الجميلة . ولا تظني ياسيدتي ان هذا هو السبب الوحيد الذي اثار خاطر (كيرللوس) على هباسيا . فان رأس الخلاف بينهما لأبعد من

هذا . اجل انما هو نزاع بين العلم والخرافة . بين التعصب والفلسفة . بين الحرية والاستبداد . بل هو نزاع بين عذراء وثنية اقامت على فضائل الدين المسيحي دون ان تعتنقه وبين بطريرك استخدم الدين واسطة لإشفاء غليله ونيل مآربه . وفاز بذلك فوزاً مبيناً . حتى ان المحافظ (اورستيس) اشفق على منصبه وحياته من تعصب البطريرك وتغيظه . ولكن ذنب المحافظ ذنب سياسي فقط . وذنب هباسيا سياسي علمي ديني . لذلك اختارها (كيرللوس) هدفاً لحقده وغضبه . وسأنقل اليك حادثة قتلها كما رواها واتفق في روايتها المؤرخون .

عندما كانت هباسيا عائدة في عربتها من المتحف الملكي قاصدة بيتها تصدى لها جمهور من رعاع المسيحيين وفيهم الرهبان وفي مقدمتهم بطرس الشماس الذي كانت له في الجريمة المنكرة اليد الطولى . فاسقطوها من العربة . وجروها الى السيزاريوم (وقد كانت في ذاك الزمان كنيسة للنصارى) ونزعوا عنها كل ثيابها ومزقوا جسدها تمزيقاً بصدف المحار (وقيل بشقف من القرميد والفخار) ثم قطعوها ارباً ارباً وذهبوا بها الى خارج المدينة واحرقوها هناك . وكان ذلك في اذار سنة ٤١٥ في عهد الملك (تيودوسيوس) الثاني . فقدس (كيرللوس) في صباح اليوم التالي على عادته . وأكل جسد الرب . ولكنه لم يستطع ان يقول ما قاله (بيلاطوس) قبله باربعة قرون – انا بريء من دم

هذا الصديق . لا . فان البطريرك مسؤول عن قتل هباسيا على هذه الطريقة الفظيعة الشنعاء . وقد يتطرف المؤرخون ويعتدلون بحسب نزعاتهم السياسية وصبغاتهم الدينية . ولكن ما من واحد منهم يرتاب في ان البطريرك (كيرللوس) هو العامل الخفي على قتل هباسيا . وقد قال (ثيودورس) وهو من آباء الكنيسة المشهورين . ان لكيرللوس يداً خفية في هذه الجريمة . وقال احد المؤرخين المعتدلين – ان لم تقتل هباسيا بامر صريح واضح من البطريرك فقد قتلت بعلمه وارادته .

وقد ادهشني عنوان طويل لكتاب طبع في انكلترا سنة ١٧٢٠ في هذا الموضوع . قال المؤلف ان هذا « تاريخ امرأة عظيمة في علمها وفضلها وفصاحتها واخلاقها وجمالها . قتلها اكليروس الاسكندرية ومزقوها ارباً ارباً اكراماً لخاطر بطريركهم الذي يدعى بلا استحقاق القديس كيرللوس »

وفي قتلها أقفل باب المتحف العظيم الذي شيده رفيق الاسكندر . في قتلها كانت نهاية العلم والفلسفة في المغرب . في قتلها تم للتعصب النصر على الحرية والتهذيب . فاقفل باب النور الذي فتحه (بطليموس) في الاسكندرية كما اقفله (يوستنيانوس) في اثينا . فكان (سمبليسيوس) اخر الفلاسفة في بلاد اليونان وكانت هباسيا خاتمة الفلاسفة في بلاد مصر . ومنذ هاتين الحادثتين المنكرتين تبتدىء ما يدعى في التاريخ « العصور المظلمة »

وتستمر في اوروبا احد عشر قرناً .

هذي هي سيرة هباسيا « العظيمة في علمها وفضلها وجمالها » بل هذه قصة النزاع بين الدين والفلسفة في ذلك الزمان . ومهما قيل في البطريرك كيرللوس فمن المقرر ياسيدتي ان الرجل الذي يعمل ما عمله في اليهود - الرجل الذي يهيج رعاعه على (نستورس) في مجمع أفسس - الرجل الذي يستخدم القوة العسكرية لاثبات عقيدة لاهوتية وتعزيزها - لا يتردد في امر امرأة عملت على هدم صروح الخرافة والاوهام . فقولي اذاً - رحم الله امثال (كيرللوس) من البطاركة وجعل امثال هباسيا من المقربين المكرمين .



القديس اغسطينوس والغزالي

الرأي محترم اياً كان مبديه — محترم الى ان يظهر الخطأ فيه . وعلى المفكرين ان يخلصوا العمل في النقد والتمحيص فيحملون على ما فسد من الاراء والعقائد ولا يتعرضون لاصحابها . فاذا قال احد الفلاسفة مثلاً : « ان الله لا يوحي الى احد من الناس وحياً خصوصياً مادياً كما في الكتب المقدسة » فليس من العدل والانصاف ولا من التعقل والحكمة ان نحمل عليه سباً وشتماً وتعييرًا . فنقول انه كافر . قليل الادب . جاحد نعمة ربه . وقد يكون هذا العالم الملحد اشرف عملاً . واسلم نفساً . واكرم خلقاً . من ادعياء الدين الذين يسفهون ذاك العالم ويثيرون عليه احقاد الجهلة وغضب المتعصبين . او ما قالوا حتى في نبي الاسلام انه سفه الاحلام وضلل الناس .

ان نظر الغزالي في الوحي الالهي كنظر القديس اغسطينوس بعينه . وقد اوتي كل منهما بلاغة جلت الحق تارة وطورًا بهرجت الضلال . فهما على السواء يحصران الوحي في حادث خطير . منقطع النظير . يخرق نواميس الكون المالوفة . فيتجلى فيه الله لواحد من الناس يدعى رسولاً او نبياً . ولكنهما يختلفان في اثبات الحادث وفي من خص بالتجلي وبالوحي .

رالقديس اوغسطينوس من هذا القبيل اشد نزعة الى التخصيص من الغزالي . وهو الى قبول العقائد الدينية اسرع منه الى نفيها او تمحيصها . ولو اتيح للاثنين ان يجتمعا في هذا العالم لتناقشا وتنازعا وظل كل في وحدته الروحية بعيداً من الآخر . واني لاتصورهما في الجنة او الفردوس او في ما يلي هذه الحياة من نعيم ابدي . على وفاق تام . وصفاء لا تعد فيه الايام . يردد كل منهما من حين الى حين . مذكراً لا آسفاً . ما طالما ردده في الحياة الدنيا .

فيقول القديس اوغسطينوس :

أشعلت نفسي لانير هيكل الدين وطريق الانسان . ولكن علم الكلام لا يصلح النفس ولا يعزز الدين .

ويقول الغزالي :

غزلت لهم غزلاً دقيقاً فلم اجد

لغزلي نساجاً فكسرت مغزلي

اللهم اذا كانا يذكران العالم الذي اختلفا فيه مذهباً واتفقا مسلكاً . وقبل ان اتوسع في التنظير بينهما اقول كلمة في النظرية الكبرى التي هي اساس الاديان كلها – النظرية التي يتفق القديس اغسطينوس والغزالي في القسم الاول منها ويختلفان في القسم الاخير . اي انهما يؤمنان بالوحي الالهي ولا يؤمنان بكل من ادعاه من نوابغ الامم .

٢

ان الله جوهر ازلي سرمدي ينبعث منه جوهر الحياة التي تظهر في الارض انواعاً واشكالاً فتتدرج الى الانسان والى ما فيه من عقل وضمير وادراك تميزه عن الحيوان . واذا اوحي الينا امر ما ولم يقبل الوحي كل الناس . فمن هو المسئول ياترى ؟ أفلا يجوز التنظير بين الجوهر الازلي الالهي ومظاهره في الحياة الموزعة المقسمة في الناس ؟ أو لا ينبغي ان يكون لما نشأ عن الجوهر الاصلي جاذب قوي فيه ؟ وبعبارة اجلى . اذا تكلم الله عز وجل بلغة من لغات الامم أفلا يكون كلامه مقبولاً معتبراً بل مقدساً عند كل من تكلم في الاقل بتلك اللغة ؟ واختياراً ذلك لا كرهاً وان لم يكن كذلك فما الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق ؟

اذا انا ابديت رأياً فمن المستحيل ان يستحسنه الناس اجمعون وذلك لانني لست الا بشراً . وان ما فيَّ من الجوهر الازلي الالهي لقليل جداً بالنسبة الى ما هو متوزع في العالم . ولكن مصدر هذا الجوهر يفوق كل ما نشأ عنه وتوزع منه . لذلك نقول ونتيقن ان الله عالم بكل شيء . وقادر على كل شيء . وناظر كل شيء . عنده علم الغيب وبيده زمام الحياة والاكوان فاذا اوحي الينا من لدنه سنّة ما فمن الضرورة ان تنطبق على حقيقة الاشياء الدائمة الازلية فلا تقبل تلك السنة التغيير والتبديل

وان ما ينافي سنن الكون لا يمكن ان يكون منزلاً من عندالله

على ان وحيه سبحانه تعالى الى من خص من الناس بجزء كبير من الوهيته يكون دائماً متقطعاً . وغالباً غامضاً . لذلك تناقضت الآيات في الكتب المقدسة وتضاربت فيها الآراء . وانا من الذين يجلون النوابغ ويقدسون الانبياء ولكني لا استطيع ان اقبل رسالتهم كلها بحذافيرها .

العصمة لله وحده . وما هو منزل من لدنه تعالى ينبغي ان يكون منزهاً عن الاغلاط . والمنزه عن الاغلاط في الكتب او في الناس انما هو كامل تام . والكامل التام لا يقبل التحسين . ولا يحتاج للتأويل ولا ينفعه الشرح العصري والتفسير . والحال ان الكتب المقدسة كلها تأول اليوم آياتها وتفسر . لا لشرح غويصها و كشف غامضها . بل لتوافق الانقلابات الحديثة ولتنطبق على مقتضى الحال والمكان والزمان . وفي كل هذه الكتب آيات يناقض ظاهرها وباطنها الحقائق العلمية . اذن ليست هي منزهة عن الاغلاط . وبالتالي ليست هي منزلة موحية

وقد يكون مصدر هذه الآيات مصدراً مجهولاً ترتبط اسبابه الغامضة الخفية بنفس الانسان المتوقدة ذكاء . السامية خلقاً . البعيدة حجة . والانسان نابغة كان او نبياً هو عرضة للخطأ والنسيان يجيء في الاحايين بالمناقضات ولا يدركها .

٣

اقف عند هذا الحد لاعود الى ذينك العالمين الكبيرين المنقطعي النظير في الروحانيات وفي البلاغة • واني لافضل حياة قدساها بالعمل الصالح الجليل على كثير من غزير ما سوداه من الاوراق في الالهيات والكونيات •

فان للغزالي وللقديس اغسطينوس محراباً خصوصياً في مسجد نفسي الحافل بالانوار . وان نورهما ليكسف احياناً تلك التي اوقدها الذكاء ولم تلمسها الروح . اجل اني لافضلهما في الاحايين على كثير من النوابغ والعلماء . ولا اظنني مخطئاً اذا قلت ان العربي واللاتيني على شرعة واحدة من الحق والحقيقة • كلاهما يسلك مسلك التوحيد كلاهما من كبار المتصوفين • وقد قال احد السالكين • ان التصوف من الصوف . ثلاثة احرف هي اصول ثلاثة :

ص : الصدق والصبر والصفاء

و : الود والورد والوفاء

ف : الفرد والفقر والفناء

والا فكلب الكوفي خير من الف صوفي •

والغزالي سيد السالكين في الاسلام شبيـه فعلاً وقولاً بالقديس اغسطينوس سيد السالكين في المسيحية . وللاثنين نظرات في الدين وفي الكتب المقدسة وان غربت شكلاً بعضها عن بعض قربت روحاً وتشابهت خطاً .

وعندي ان كتب الدين مصابيح تنار بها مسالك الحيـاة لا مقاييس تقاس بها العلوم البشرية . وسيدي الغزالي كاستاذي القديس اغسطينوس يضعف اسباب الدين وينفي القداسة منه حين يرفعه على العلم . الغزالي يرى في القرآن القسطاس القويم لكل العلوم البشرية . والقديس اغسطينوس يرى ذلك في التوراة والكتابان لا تقبل حجتهما اليوم في سنن الكون كلها وفي امور الحياة كافة . ففي القرآن مثـلاً : تجري الشمس لمستقر . وفي التوراة : تقف الشمس اكراماً ليشوع بن نون . وتلاميذ المدارس اليوم يعرفون ان الشمس لا تجري ولا تقف وانما تدور عـلى محورها . والارض تجري في الفلك حولها .

٦

اذكر اني اشرت يوماً الى هذه الآية في حضرة عالم من علماء المسلمين فكتب الي بعدئذ شارحاً مفسراً ليبرهن ان النبي كان عالماً بحقيقة الشمس والسيارات حولها . ولكن في عهد النبي

لم يكن احد يشك في ان الشمس تدور حول الارض بل كان هذا الوهم شائعاً في الشرق وفي الغرب حتى بين العلماء · والنبي محمد تتبع ما كان شائعاً فقال : والشمس تجري لمستقر · ولكن المدهش شرح سيدي الشيخ · قال : ان اللام في قوله لمستقر · اما بمعنى (على) مثلها في قوله : « ويخرون للاذقان » وقوله « فخر سريعاً لليدين وللفم » او بمعنى (في) مثلها في قوله : « نضع الموازين القسط ليوم القيامة » او بمعنى (مع) مثلها في قوله : « وكأني ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً » وعلى كل هذه التقادير يكون المعنى تجري في مستقرها اي تجري وهي مستقرة في مكانها من دون انتقال عن فراغها الحائز لها · ولعله اشار الى حركتها المركزية على نفسها ·

ادهشني هذا التفسير من سيدي الشيخ ولكنه لم يقنعني فاذا سلمنا بدقائق لغوياته كيف يمكننا ان نسلم بان الشمس تجري وهي مستقرة في مكانها ؟ ولكننا اذا رفضنا قول النبي في طبيعة الشمس وناموسها – ولا لوم عليه في ذلك لان الخطأ هذا كان عاماً في ذلك الزمان – فلا نرفض ما سمي من نظرياته الروحية والادبية · ومن شرائعه الاجتماعية التي تنافي ناموس التطور والارتقاء·

مثال آخر من هذه التفاسير التي لا ابرىء الغزالي منها ·

فقد كتب اليّ صديقي الشيخ يقول ايضاً : ان القرآن الكريم يشير الى بدء خلق الانسان وعلم الحياة بقوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين · ثم جعلناه نطفة في قرار مكين · ثم خلقنا النطفة علقة · فخلقنا العلقة مضغة · فخلقنا المضغة عظاماً · فكسونا العظام لحماً · ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله احسن الخالقين) وقد فاته ان هذا الوصف ينطبق على خلق الحيوان اكثر منه على خلق الانسان · لان اهم ما امتاز به الانسان انما هو العقل والروح والضمير · وقد اغفلت كلها في الآية · وان ما فيها من وصف لخلق الانسان لا ينطبق لا على سنن العلم ولا على سنن الدين · « خلقناه من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين » تعالى الله عن مثل هذه السمادير والرطانات · ثم قال شيخي الفاضل : ويشير الى علم طبقات الارض في قوله (سبع سموات ومن الارض مثلهن) فاذا حصرنا كل سماء من سماوات الكتاب في سيارة من السيارات وفلكها بان لنا ان عين النبي لم ترَ غير القليل من سماوات الله · فان علم الفلك يبرهن ويحقق انها لا تعد ولا تحد · وان اكبرها اصغرها في نظرنا وابعدها منا ·

وغني عن البيان ان للكتب المقدسة كلها تقاسيم وشروحات زادت غموضها غموضاً والقت بين الناس الفتن « وأودعتهم افانين العداوات »

٥

والغزالي والقديس اغسطينوس من كبار الاساتذة في علم الكلام الذي هو مصدر كل هذه التفاسير والشروحات . على ان روحانيتهما الصافية المجيدة لتشفع بما جاءا به من سمادير التفسير . ومن الغريب انهما يتشابهان في كثير من طباعهما واطوار حياتهما . فالغزالي مثل القديس اغسطينوس كان في ايام حداثته في ضلال مبين على ما يقول . فقد جاء في كتابه « درر القرآن » هذا الكلام الجميل في فئة من الناس

« لم يدركوا اشياء من عالم الارواح بالذوق ادراك الخواص ولا هم آمنوا بالغيب ايمان العوام . فاهلكتهم كياستهم . والجهل ادنى الى الخلاص من فطانة بتراء و كياسة ناقصة . ولسنا نستبعد ذلك . فلقد تعثرنا — باذيال هذه الضلالات مدة لشؤم اقران السوء وصحبتهم حتى ابعدنا الله عن هفواتها ووقانا من ورطاتها »

اما القديس اغسطينوس فعد الى كتابه الذي يدعى « الاعترافات » تجد في كل صفحة من صفحاته شيئاً من هذا الجهر المدهش المفيد .

وقد قال الغزالي مشيراً الى علم الطب وعلم النجوم وعلم الهيئة والحيوان ان هذه علوم « ولكن لا يتوقف على معرفتها صلاح المعاش والمعاد » ولكنه قال ايضاً : كما يستحيل الوصول

الى اللب الا من طريق القشر فيستحيل الترقي الى عالم الارواح الا بمثال عالم الاجسام »

وفي اقواله كثير من مثل هذه المناقضات · لانه اذا زعمنا هذا الزعم فلا تصح العلوم الروحية الا اذا صحت العلوم المادية · والحقيقة في هذه انما هي باب الى الحقيقة في تلك · وهو نفسه القائل بها · وقد وضعها في قالب بديع جميل

« من ذهل عن تدبير المنزل والمركب لم يتم السفر · وما لم يتم امر المعاش في الدنيا لا يتم امر التبتل والانقطاع الى الله الذي هو السلوك »

العلوم المادية اذاً هي اساس العلوم الروحية · وكتب الدين مصابيح تنار بها مسالك الحياة لا مقاييس تقاس بها العلوم البشرية ·

وقد يتفق كبار العارفين والمفكرين في امور · منها امر التشويش لان التعمق في دار العلوم يؤدي الى التغلغل في سراديبها ·

وجدير بالناظر الى اسرار الكون في منظار الغزالي او القديس اغسطينوس او العلماء الماديين التمثل ببيت للمعري الفيلسوف العقلي اذ قال مردداً صدى صاحب السر الاعلى :

اوفي ديوني وخل اقراضي   مثلك لا يهتدي لاغراضي

صديقي الاعز

انه لم تحاسب نفسك سراً
حاسبك غيرك جهراً

لي صديق من علماء المسلمين حر الكلمة . شديد العارضة . كثير المعارضة . لا يوارب . ولا يصانع . ولا يحابي . يصدق في الجدال . ويصلب في القتال . منيع عنيد مريد . يؤمن بالله ولا يؤمن بسواه . يخالف لاليعرف . بل لينصف ويُنصف . فينتزع الحقيقة من بين جنبيك اذا جُنَّت على عمد هناك . او يريك انها بعيدة منك غريبة عنك . وان حياتك بلاها لكالطلل في الصحراء . بل كالكتابة على الماء له صديق من اعز الاصدقاء بل اعزهم وايم الله لديَّ واقربهم اليَّ — الى ذاتي المجردة المعنوية العلوية — الى قدس الاقداس فيها .

وهو لا يزورني الا في حين عثرة من عثرات النفس . او كبوة من كبوات القلم . او سقطة من سقطات العقل والعمل . وقد جاءني منذ ايام يناقشني الحساب فسلم وجلس . واشعل سيكارته وطلب فنجاناً من القهوة وبدأ باسم الله :

— لم اكن في المدينة ليـلة خطبت خطبتك « روح الثورة » ولو كنت فيها لما حضرت الحفلة • فانني افضل قراءة المفيـد من الخطب — وما اقلها — على استماعها • وبودي لو جعلت الحكومة ضريبة على الخطابة العصرية والدستورية وخطبائها المصاقيع • اذ لست ارى فيها كبير فائـدة • فالخطيب المليح الطلعة • الحسن البادرة • العالي الصوت • الكثير الحركات والسكنات • يموّه ما شاء وشاءت عنجهيته ويخبط في دقيق الامور خبط عشواء فيسمعه القوم مرتاحين معجبين ويصفقون لنكتة باردة او لطعنة صادرة وتفوتهم تمويهاته كلها وما قـد يتخللها من شذرات حق ولمعات برهان • والخطيب العالم الرصين الحصيف يمله الناس، ولا يعلق من خطبة ساعتين في اذهانهم غير كلمات الشكر للجمعية التي انتدبته وبعض عبارات الثنـاء على تأدبهم وكرم اخلاقهم وجميل صبرهم في الاصغاء الى مثل معضلاته — وترهاته . الخطيب الاول ضرره اكثر من نفعه • والخطيب الثاني لا يفيد قطعاً •

فاستأذنت الاستاذ بكلمة فقال : ادركت لحنك لا الخطيب الاول انت ولا الثاني • يتهمونك بالعلم يا صاح وانت بريء منه

فقلت : وشأني في ذلك شأن شاعرنا المعري القائل :

يظن بي اليسر والديانة والعلم ... وبيني وبينها حجبُ
اقررت بالجهل وادعى فهمي ... قوم فامري وامرهم عجبُ

— نعم ويسمونك فيلسوفاً وما انت بفيلسوف •ويدعونك

شاعراً ولست بشاعر . والحق في ذلك عليك . لاستطعت لو شئت ان تكون احد الثلاثة . ولكنك طماع طماح . لقد اشتغلت في درع نفسك الايادي الثلاث — يد العلم ويد الفلسفة ويد الشعر — فبالغت في صناعتها وترصيعها فرقت حتى كادت تنقصف وتبلى . درع انيقة الصنع وهاجة براقة . تبهر الناظر اليها . وتخدع السامعين بها . ولكن من ينقرها مثلي نقرة الناقد يسمع الغنة في صوتها ويأسف اسفاً شديداً . نعم . درعك رقيقة دقيقة واهية لا تقيك الاضاليل المقدسة واغاوي الحيوة الدنيا . خذها يا ريحاني مني . ينبوعك لم يزل عكراً . ومياهه لم تزل متشتتة . اما النفس فلم تملك بعد عنانها . لم تزل بعيداً منها . لم تزل عدوها . وبالتالي عدو الحقيقة .

ولكن هذا غير الموضوع الذي حملني اليك . قلت لم اسمع خطبتك ولكني قرأتها في المجلة وكنت قد طالعت في مجلة اخرى علمية خطبتك « الاخلاق » فما وجدتك فيها فيلسوفاً ولا عالماً ولا شاعراً بل اديباً كسائر الادباء تطلي الحديث وتجمجم الكلام . تصدع ببعض الحقائق وتوهم الناس انك مظهرها كلها . بل انك محتكرها . أبدأت تجربز يا صاح وتداري وتجامل وتحابي . ما هذا عهدي بك . عرفتك حراً غير هياب . وجريئاً غير مذبذب . فما بالك صرت تتكلم كعلمائنا الموقرين عبيد الامراء والاغنياء ؟ كنت تحمل على الكهان مثلاً فاعتضت عن اسمهم الحقيقي

بادعياء الدين اتعميم منك هـذا ام تلطف • طرت الى الهند بنا في خطبتك « الاخلاق » لترينا شر الخرافات والاضاليل هناك • وعندنا نحن المسلمين ما هو اخبث منها واضر • ذكرت شرائع (كنفوشيوس) وتعاليم (بوذا) الـتي لا تصلح للناس في كل مكان وزمان واغفلت ما يلي من شرائعنا ونحن لم نزل نقدسها •

فقلت : والحق في ذلك على صاحب المجلة لانه بـدّل من خطبتي الفاظاً كالتي اشرت اليها وحذف منها كل ما خاله « يخدش الاذهان » عملاً بالقول المأثور : ودارهم ما دمت في دارهم •

— يا للذل ويا للعار ! اية دار واي قوم ؟ ايفرّقنا التعصب • ويقتلنا الجهل • وتجهز علينا المداراة • ولكنك في موضوع الثورة اغفلت اهم الحقائـق او انك تجاهلت وداريت • فاعلم اصلحك الله ان من الحقائق الرائعة ان الثورة للامـة كالحمام للانسان • تنبه فيها الدم وتوقظ النشاط وتجـدد القوى الروحية والمعنوية • ناهيك بالنظافة • فالجمود الملازم حكومات الشرق كلها والاقذار التي تراكمت عليها والفساد الذي اعتراها لا يزيلها غير الحمام • حمام الثورة الغـالي • ولعمري اذا انحط الجيل الى درجة يصبح الدم في عروقه كالماء فهدره لايضر وقد ينفع • جيل كهام مرض عقيم لا يصلحه غير السيف • ألا فالسيف يمهد السبيل لتهذيب الجيل الوليد الجديد • اعلم ادام الله تمكينك ان للدم عاملاً هو اهم في بعض الاحايين من عوامل العقل • اما العقل

فاذا اختل يلقي صاحبه بالبيمارستان فيؤسر هناك . والدم اذا فسدت ماهيته وابطل عمله فهدره وحقنه سواء . ومن اشرف عوامله انه اذا امتُهنت حقوق الانسان ينبهه الدم الحي في عروقه ويستفزه . والدم يحمله على المناهضة والمكافحة . والدم يثير منه كريم العواطف وشريف السخط والغضب . واما الجيل الذي لا يشعر بالمظالم ولا ينفر منها . الجيل الذي الف العبودية . ولم يزل يسترحم حكامه ليجددوا له القيود والاغلال . فاي فضل له في الحياة . على ان الامة وان لم يبق فيها غير واحد من ابنائها يدرك الحقيقة ويصدع بها لا تعدم رجاء فأملاً فسعياً ففوزاً في تجديد حياتها وعزها ومجدها .

ألا ان ثورة طبيعية دموية لتلقي كل منا الى ساحل الحياة . الطفل يولد باكياً والام في تلك الساعة العجيبة ضارعة متألمة متوجعة . الولادة — كل صنوف الولادة — طريقها الدم ومهدها الانين . والثورات في الامم صنف منها . وبعد ان يولد الطفل تأخذ الام بالتعافي فتشفى رويداً رويداً ويتمها الله بضعف ما ذبل من حسنها وما انحل من عزمها وقواها . الام ! الامة ! ان فضل كلتيهما لعظيم . وعذاب كلتيهما اثناء الولادة — اثناء الثورة — شديد اليم . ولعمري ان ولادة الروح الجديدة في الامة لأهم من الولادات البشرية كلها . هذه هي الحقيقة بعينها أضعتها او حاولت ان تخفيها في التفلسف بنواميس الكون الازلية . سامحك الله .

وهلا خطر في بالك ان الثورة المقبلة في البلاد سيكون الجوع مثيرها . آسيا الصغرى وقد بارت ارضها ونضبت ينابيع الرزق فيها وتزاحمت على مواردها القليلة القصية الاجانب من الروملي واوروبا . أيموت سكانها جوعاً وحكامها في كراسي الحكم آمنون مطمئنون . لا والله الثورة التي ينفخ الجوع في نارها لاشد هولاً من سواها . كان اذا اقترح احد رجال (نبوليون) عليه اقتراحاً يبادره سائلاً : وهل انت كافل معيشته ؟ أفلا يثير مثل هذا العمل الشعب البائس الجائع . (نبوليون) العظيم — ولم يخش يوماً صولة جيوش الاعداء المتألبة — كان يخشى ثورة رأس اسبابها رغيف من الخبز . هياج الشعب البائس ؟ لطالما خشاه اكبر ابطال العالم واتقوه . والويل ثم الويل يوم يستفيق شعوب المشرق من سباتهم الطويل العميق فيبتدرون الحسام . يمتشقونه على الظلام .

* * * *

وهذا بعض ما قاله سيدي الاستاذ ناصر الدين البغدادي منتقداً خطتي وخطبتي . وهو عندي من اعز الاصدقاء بل اعزهم غير مدافع لانه لا يجاملني ولا يداريني ولا يداهنني . لله دره من صديق يناقش غير عاذر وينبه ويذكر وينذر . وبما انني بحثت بلاسمه الى القراء سأهديهم عما قريب رسمه ان شاء الله .

رسم

الاستاذ ناصر الدين البغدادي

التقيت في الشارع الجديد (ببيروت) بسيدي الاستاذ ناصر الدين وهو يمشي بين خطي «الترام» منكساً راسه يناجي نفسه . فجبهني بعد السلام بكلمة من كلماته القاسية شأنه كل مرة نتقابل .

— جنيت يا ريحاني عليّ .

— بِمَ ؟

— أوَ تسأل متجاهلاً ؟ الا تعلم رعاك الله اني امتثل دائماً بقول الشاعر :

وخمول ذكرك في الحياة سلامة ودهاك من امسى لذكرك ناشرا

— ألانني بحثت الى القراء باسمك ووعدتهم برسمك ؟

— هو ذاك . فما الاسم والرسم والجسم غير اشراك للانفس وحبائل للعقول ؟ المرء بافكاره . ولكنكم معشر الكتاب تعنون بزخارف الشهرة وتلهون بالاباطيل . اما الحقيقة فلا تعرفكم ولا تعرفونها . واذا اجتمعتم بها مرة في الزمان تجاملونها ظاهراً وتلعنونها سراً . شأنكم واسيادكم . وما الفائدة يا ترى من شهرة

تطلبونهــا . واسماء تذيعونها ، ورسوم تزخرفونها ؟ سمادير والله وترهات ! جاءتكم من اوروبا فحسبتم الحيوة لغواً بدونها . اي فضل لشهرة لا تجديكم نفعاً في غرة كل شهر حين يتقاضاكم الخياط والاسكاف والفراش والبقال والحمال ؟ اتنقدونهم من ذائع صيتكم ؟ اتهدونهم جميل رسمكم ؟ اتحبونهم من ترهاتكم ؟ اتتلون عليهم من رطاناتكم ؟ اشعلوا النار وانفثوا في العقد حيوتكم . هيهات . هيهات . خذها مني . لتأكل النار يوماً سماديركم كلها واوهامكم . نار الفكر – نار العقل المقدسة لتحرقكم اجمعين . اما افكاري فاذا كانت تفيد فهي لك . بثها في الناس . وادعيها ان شئت . ما قيل . لا من قال . والفكر الذي لا يقبله الناس ان لم يدعم بشهرة باطلة او باسم كبير رنّان لا يستحق ان احرك من اجله اناملي او لساني . الحقيقة تنبو عن الطبل والزمر . واذا أغفلت زمناً وشعرت بدنو اجلها تلجأ الى السيف فينميها ويعيدها عزيزة ظافرة . خذها مني . ودعني في خمولي آمناً شر الناس . بعيداً من ضوضاء الشهرة . مرتاحاً من تكاليف الحيوة الاجتماعية. ضوضاء الشهرة ؟ ان مسامعي لتستك منها ولتنبو عنها . اما ضوضاء الثورة – صليل السيوف وقرع الرماح ودوي المدافع – فمثل الاغاريد في اذني .

وبينا هو ينثر من حكمه وبيانه . ويكنس الهواء باردانه . اذا بجرس « الترام » يدق . وحمال ينق . وحوذي يصيح . وحمّار

يحلف بالمسيح . واميركي تعثر في الزحام و « كدّم »[1] . وظريف سمع الاستاذ ينطق بالفصحى فتهكم : استفيقوا . انكم في الطريق فاستفقنا . والى الرصيف تسابقنا . ولكن الاستاذ وقد صدمه الحمار . تعوذ واستجار . وصاح : ياللعار وللشنار . أتيس يسوق ؟ ووحوش تفلت في السوق ؟ فضحك سائق « الترام » وتنطس في الفك والادغام . ونادى الحوذي : يابو مشمش اللوزي . ظهرك . رجلك . فذعر صاحب الطبق ووثب . وقد شاهد المنية عن كثب . فنطح الاستاذ في قفاه . وراح يلعن امه واخته واباه . فضربه الحوذي بالسوط فلم يصبه . ولكنه اصاب من سيدي ناصر الدين اذنه . وعلق بجسر العربة ردنه . فانشدح وزحف . ورسا على الرصيف وتلهف . : ياما احيلى البعير العاري . تجوب به القفار والصحاري . ومسح العرق من جبينه . وهو يضحك في كم الفلسفة من حينه .

— اي والله فردن ممزق . رحمة في مثل ذا المأزق .

— والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه . رب زحام . فيه كأس الحمام .

— تمام . لا بارك الله في المدينة وبهرجها . اما وقد نجونا من مهلكتها هذه المرة — وقد لا ننجو منها مرة اخرى — فلا بد من خطبة اخطبها غداً في المسجد . واحب ان تسمعها . وبما ان المسجد

(١) اي سب بالانكليزية

الذي اصلي فيه صغير ولا يعرفه من الناس غير المقيمين بجواره أدلك اليوم عليه فتؤمه مصباح الغد فتسمع خطبة عربية (ومكن اللفظة الاخيرة ووقف عندها) خطبة عربية بليغة وجيزة . لا كالخطب العصرية التي هي اطول من شهر رمضان . وابرد من ظلف الظرّبان . خطبكم العصرية ؟ ان هي الا رسائل جافة عقيمة حرية ان تنشر او بالحري ان تدفن في مجلاتنا العلميــة التي لا يطالعها غير المتنطسين ادام الله تمكينهم . مجلاتنا العلميــة التي لا تزيدها السنون الا قشوراً

وكاد الاستاذ يذهل ثانية فيقف غضباً ناقاً في قارعة الطريق لو لم استوقفه على الرصيف ريثما ينتهي من كلامه . وما خلته ينتهي وموضوعه مجلاتنا العلمية .

و كان وقوفنا قدام دكان تباع فيه الاسلحة . وصاحب الدكان صديق الاستاذ – ولا غرو – فبادره بالسلام وسألنا ان نشرف المكان . فقــال الاستاذ على الفور : ان ما في حانوتك ليشرف الانسان . افلم يقل الشاعر :

لايسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

وانت يا ريحاني مخطئ في ما كتبته في ريحانياتك[1] اتتجاسر على ابي الطيب و كلامه عين الحكمة ؟ سامحك الله ! اجلس . ها هنا سر من اسرار الحيوة .

(١) يشير الى مقالتي « بيتان للمتنبي »

واخذ الاستاذ مسدساً وشرع يقلبه ويتأمله .

— اني لاؤثر السيف على هاته الآلة الدميمة . الا فالسيف عنوان الفراسة . السيف راموز الشجاعة والبطولة . وهذه — مصوباً المسدس نحوي — سيمة الغدر . ضريبة الجبن . أم الاغتيال . ان ما يجيئنا من اوروبا ليذهب بالبأس والمنعة والنشاط . الحضارة تعلم الناس الدهاء وتشربهم روح المكر والجبن والخداع . ولكن هذا غير ما ابتغي من قولي ان ها هنا—واشار الى المسدس — سراً من اسرار الوجود والفناء . اعطني يا ابا حسن رصاصة . تأملها يا ريحاني . قطعة من الحديد صماء . لا توزن عشرة دراهم ولا تبلغ طول بنصري هذا . اذا وضعتها في هاته الالة الافرنجية الدميمة واطلقتها عليك تخترق الاضلع منك . وتخمد جذوة الحيوة فيك . الحيوة هبة آلهية من لدنه تعالى — الست من القائلين بهذا ؟ — يكللها نور العقل الذي يدرك الانسان بواسطته ما خفي من الاشياء . وما دق من الحوادث وما بعد من الاكوان . وينظم بفضله الشعر . ويقيس الشمس . ويوزن النجوم . ويحلل طبقات الارض ويخطط فلك السموات وابراجها . ويدس مع ذلك الدسائس لاخيه الانسان — ينافق ويخادع ويجور ويتجبر — اما هاته الالة فبكلمة واحدة من كلماتها تبطل كل اعماله السامية والسافلة معاً . الا ان الرصاصة هذه لابعد سراً من الحيوة واسبابها فانها اذا استقرت في صدرك او تحت اضلعك توقف

الحركة الدموية فيك فتفسد القوة العاقلة الالهيـة والشيطانيـة فتدعك جثة باردة هامدة • اقبس سماوي في الانسان تطفئه قطعة من الرصاص ؟ ومهما يكن من عز له وسلطان — مليكاً كان او قائداً او شاعراً او نبياً — فهو اذا بُغت بهاته الالة الذرية الدميمة يقف مذعوراً مرتجفاً صاغراً — سيفك ياصاحب الدولة ! ملكك ياصاحب الجلالة !

فقلت : وما ادراك ان عامل الرصاصة هذه كعوامل الزلازل والسيول في الارض فتنبت نبتاً جديداً وتجدد فيها اصول الحيوة — وان جثة الانسان لتعمل عمـل الزلزال في تربة الارض فتغذي الكلأ وتنميه وتبعث الخصب فيه • دعنا من هذا الان • وانظر الى الواقع • ها اني اتحرك واتكلم امامك ارى الاشياء فاعقلها الى حـدٍ ما • احب واكره اغضب واعطف • ابتهج واتألم • اضحك وابكي • هي حقيقة لا اخالك تنكرها • وهاتـه الرصاصة حقيقة اخرى • اذا اعترضت الاولى افسدتها • صرعتها • هدمتها • حولتها تراباً ودوداً وكلأ وحيواناً • امر غريب ! سر عجيب ! في هاته الرصاصة قوة سلبية تذل لهـا قوى الحيوة الايجابية كلها • افي هاته الرصاصة كلمة كامنة تمحو اذا بدت كلمة الله المتجسدة في الانسان ؟

فاستأذنت الاستاذ قائلاً : ولكن حبة من القنَّب او نقطة من السم اذا سرت في عروق الانسان تفعل فعل هاته الرصاصة •

– وهذا اغرب واعجب . افلا يؤيد كلامي ان اتفه الاشياء واحطها لتفسد مبدأ الحيوة في الانسان . لتخمد مصدر النور فيه . لتهدم ما بناه الله . قم بنا اهدك الى المسجد .

فودعنا صاحب الاسلحة . وخرجت اتلو الاية : ويزيد الله الذين اهتدوا هدًى .

* * *

ونكبنا عن السبل الفجاج . والغوغاء فيها والعجاج. فادلجنا في احياء دامسة . كسراديب الاطلال الدارسة . ليلها لا يدور وظلامها لا يغور . جاداتها اسنان منشار . وحوانيتها حفائر واوجار. ولكنها بالنمارق مفروشة . وبالبضائع مصفوفة . وفيها التجار متربعون . يسبحون وينعسون . العطار قبالة العطار . مثل الدمى في خزف الاغيار . والبزاز تجاه البزاز . كانهما وردتان من شيراز . اذا رغبوا في المصافحة . او المكالمة . فما هي الا اياد تمدد . و كلمات تردد . واصحابها جلوس . لا كسب يقيمهم ولا فلوس . ولا حب ولا وقار . ولا وليّ ولا نعّار . ولا سيف ولا نار . كانهم صبيان الجنان . تجارتهم سلام وامان . فشكرت على ذا الاكتشاف العناية . وتلوت الاية :

ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سررٍ متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين .

فسمعني الاستاذ الرفيق ووقف شائلاً بانفه مبتسماً ابتسام

الانكار والتحقير هامساً في اذني : ذئاب في جلود الحملان . ما خلتك تخدع بالسبح والتناعس .

ثم استأنفنا السير ساكتين . فاجتزنا سوق العطارين . فسوق البزازين . فنعرج في سوق الخضر . فجادة البدو والحضر (واما الضارع . اتلو القوارع .) فيدان ككفة الميزان . في وسطه بركة كالكشتبان . فجادة اخرى . واخاديد تحت البيوت تترى . لست ادري الان من ايها خرجت . وايها دخلت . حتى وصلنا — والحمد لله كثيراً — الى زاوية الاستاذ المباركة . فوقفنا في باب مكتبة هناك . لا كفر يدنسها ولا اشراك . يباع فيها المصحف والغزالي . والبردة والبيضاوي . صاحبها شيخ عبوس دميم . في جبة بيضاء كالريم . لحيته تندى بالخضاب . وانفه صيوان بلا اطناب . عيناه نقطتان هزّازتان . كانهما زنبق في كشتبان . واذنه صغيرة زباء . تبدو كالدواة من تحت عمامته البيضاء .

فالقى اليه الاستاذ السلام . ثم قال وهو يشير اليّ : اتعرف من الرجل .

فاجاب الشيخ على الفور : افرنجي كافر ولا شك .

— بل هو من المستشرقين

فترجرج الزنبق في ناظريه اذ زلقني بهما . وخاطب الاستاذ قائلاً :

— وماذا يريد ؟

— يبحث عن الكتب الاسلامية

— لا ابيع . لا ابيع .

وعاد الشيخ الى مجلسه غير حافل بالزائر الغريب .

فضحك الاستاذ ناصر الدين قائلاً : جازت ولا بأس ياشيخي. هذا صاحبنا الريحاني الذي طالما وددت ان تراه وتتعرف به .

فأخذت الشيخ دهشة جعلتـه هنيهة كالجماد . ثم ترجرج الزئبق في عينيه . ولاح في وجهه وميض من النور . فنهض الي هاشاً باشاً . يعتذر ويستغفر . واجلسني الى يمينه على الديوان وهو يقول : لا كانت ساعة . لا كانت ساعة . خدعتني يا ناصر الدين . بل هذه القبعة لعنها الله ! خدعتني .

فقال الاستاذ : وليخدعنك من هذا الرجل اشياء اخرى لو عرفتها . فان لكل رأي من آرائه قبعة . ولكل شيطـان من شياطينه جبة . ظاهره اوروبي . وباطنه — الله اعلم بالسرائر .

فهتف الشيخ قائلاً : لا سمح الله . لا سمح الله .

فقال الاستاذ شارحاً الاكتفاء : كيف لا وبين الشرقيـين والغربيين وهدة عظيمة .

فاجبته ذاكراً الآية : وهو على جمعهم اذا شاء قدير .

وفي تلك الآونة مرّ بياع السوس يقرع الفنجان بالفنجان . منادياً « برد ياعطشان » . فاوقفه الشيخ في الباب وأمر لنا بقصعة

مما في قربته السوداء الزرباء الردغاء . وقال يطمئنني : لا تتقزز . للطاهر كل شيء طاهر ثم مد يده الى رزمة من الكتب تحت الديوان فاخذ منها كتاباً ونفض عنه الغبار قائلاً : هـذا سفر جليل احب ان تطالعه اهديكه ذكراً لزيارتك مكتبتي . فقبلته شاكرًا وقرأت ما على جلده فاذا بالآية : ان الدين عنـد الله الاسلام . فخطر لي فكر . ولكني تذكرت ما جاء في الكتاب الكريم : ولا تسألوا عن اشياء ان تبدو لكم تسوءكم .

وفطنت اذ ذاك انني في غور من المدينة بعيد الارجاء وان دون منزلي سراديب واخاديد لا يرمقها « قمر » [1] البلدية بشيء من نوره . فقمت اعتذر . فقال الاستاذ ناصر الدين : لا ادعك والله ترجع وحدك . اما المسجد فها هو في وجه هاته المكتبة . تعالَ غدًا .

فدهش الشيخ لهذه الدعوة وبهت . وأومأ الى الاستاذ فكلمه كلمة في الزاوية . ثم خاطبني مجاملاً معتذرًا مستغفرًا ملحناً ملغزًا . فأراحه واراحني الاستاذ بكلمة من كلماته الصريحة اذ قال : اما ترجمة ذا الهذيان كله فاليك بها : لا تجئنا غدًا بالقبعة .

فقلت : وعلى رأسي الطربوش والعمامة .

وفي اليوم التالي يممت المسجد . . . . وكان الاستاذ ناصر الدين في المنبر فسمعته يقول :

(١) في الليالي المقمرة لا تنور بلدية بيروت اسواقها

ويل امراء الناس • من عواقب الافـلاس • ويل امراء الـكلام من منطق الايام • ويل امراء المؤمنين • من كتائب الحق واليقين • افلاس في الايمان • مغبته السقم والهوان • افلاس في الآداب • مغبته العقم والخراب • افلاس في الحكومة • عواقبه معلومة • ويل المنافقين والطغاة من نهوض الجماعات • ويل الامة • من جهل الأقسة والأئمة • قلانس لا تزين • وعمائم لا تعين • أرياء واكرام • أسفه واحترام • أفسق واجلال • أنفاق واقبال • لا ورب الجلال ! ويل للرؤساء المتنطعين • ويـل للاعيان الاغمار • يحلفون بالرسل والانبياء وهم لابليس اخدان وحلفاء • ويل الظالمين • من حمم البراكين • ويل لصوص الملك والسفهاء من غضب الارض والسماء • غداً يتقدون مما يضربون • غداً يشربون • مما يسقون • غداً يأكلون • مما يطبخون • غـداً يحصدون • مما يزرعون • ازرع العـاصفة • تحصد القاصفة • ليحصدون والله مما يزرعون •

وهل يحصد المرء غير ما يزرع • ازرع الوفاء تحصد جميـل الدعاء • ازرع الآداب • تحصد المجد والاعجاب • ازرع الصدق والرصانة • تحصد الثقة والامانة • ازرع العلم والحلم والاحسان • تحصد السؤدد وولاء الزمان • ازرع البر والقناعة • تحصد الحكمة والدعة • ولـكنك اذا زرعت الاثرة • تحصد النقمة • واذا زرعت الفسق والفحشاء • تحصد الويل والبلاء • واذا زرعت الريب

والشبهات . تحصد الخيانات . واذا زرعت الكذب والبهتان . تحصد الذل والهوان . واذا زرعت الجهل . تحصد التعصب الذميم واذا زرعت الظلم تحصد الجحيم .

جرِ ان الزارعين فساداً . ليحصدون رماداً . والزارعين عاراً ليحصدون ناراً . رحبة سبل الاثم والفساد . مجيدة عروش الظلم والاستبداد . ولكن الزنابير . تكمن في الازاهير . وتحت الرياحين . تلبث الثعابين . اليوم ديوان واجلال . وغداً سجن واغلال . اليوم قبة مضروبة . وغداً آلة منصوبة . اليوم تاج وصولجان . وعود وكاس وقيان . وغداً ؟ — لا جنازة غداً ولا اكفان .

لنا النفوس . وللطير اللحوم . وللوحش العظام . وللشوارة السلب

***

وبعد الخطبة والصلاة . اجتمعت في مكتب الشيخ مبغض القبعات تجاه المسجد .... بنفر من اخواني شبان المسلمين الذين ينزعون الى الوهابية في الدين والى شبه مذهب الخوارج في السياسة .

فقال سيدي ناصر الدين : هؤلاء من غراس الناشئة الاسلامية الجديدة .

وقال احدهم مشيراً اليه : من غرس هذا الفاضل .

فرفع الاستاذ يديه مستغفراً الله مردداً قول لبيد :

اذا المرء اسرى ليلة خال انه قضى عملاً والمرء ما عاش عامل

بذور للزارعين

جاءتني من الاستاذ ناصر الدين البغدادي هذه الكلمة الشديدة تصحبها بعض غراس من مغرس افكاره الكريم :

ابقاك الله ايها الريحاني ومتع بك . اعلم انني زرعت من «بذورك» في مزرعتي فلم تنبت الا قليلاً . وهذا القليل سريع النشوء سريع الذبول . وقد بعثت بمثال منه الى ناظر الزراعة في العاصمة ليفحص ويحلل علنا نهتدي الى اسباب السقم فيه فنتلافاه . واخال ان مكروباً غريباً كامناً في «بذورك» يحول دون نموها . وهاك مثال من الغراس «البلدية» السليمة الجيدة وما اقلها واسفاه ! — اغرسها في بستان ادبك ليتمتع بثمارها الناس والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

ناصر الدين البغدادي

وقد غاب عن سيدي الاستاذ ان المكروب الذي اشار اليه قد يكون في التربة لا في البذور نفسها . وليته بعث بمثال منها ايضاً الى «ناظر الزراعة في العاصمة»

اما الغراس التي تفضل بها فهاك بعضها .

«يبقى الملك بالعدل مع الكفر . ولا يبقى بالجور مع الايمان»

— حديث شريف —

السلطان الكافر العادل اذًا افضل من السلطان المسلم الجائر

* * *

اتخشون الموت ايها الناس ولا تشعرون بموت انتم فيه . ان عظاماً في الاجداث باليه لخير من هاته الاشباح التي تتمشى في اسواق المدينة .

* * *

اصلحك الله ايها الاديب المصلح ! اتمسح حذاءك ثلاثاً كل يوم ولا تمسح نفسك مرة في السنة ؟ ابماء الوجه تغسل يدك الاثيمة وتلحف بماء الورد مثل العاهر البغي نتاناتك ؟ اتجرد يراعك على النائين من الظلام وامام اسيادك الطغاة العتاة تعفر وجهك . الى النار بيراعك والى « البويجي » بنفسك لا بحذاءك .

* * *

مارك الله ايها الامير . فان من تطربهم من العرانين . يصرون الدرهم بالقلشين . ومن تنصرهم من الغطاريف . يعوذون بالله الرغيف . واصحابك الاعيان . الباقي في خاتم مجدهم فص او

فصان . يبتاعونك غداً برتبة ونيشان . انتصح مارك الله ورعاك .
واطرق باحثاً عن رزقك غير هذا الباب .

* * *

نظرة في الهيئة الاجتماعية الشرقية صائبة ترينها مركبة في
الاجمال من طبقتين من الناس . الساهرين والنائمين . الظالمين
والمظلومين . المغتصبين والمغتصبين . اما النائمون فينهضون
بعد طويل الرقاد اقوياء اشداء . فيظلمون ابناء الليل اللصوص
وقد اصبحوا كهاماً سفهاء .

* * *

روى ابو داود في سننه ان النبي قال : « سيأتيكم ركب
مبغضون يطلبون منكم ما لا يجب عليكم فاذا سألوا ذلك فاعطوهم
ولا تسبوهم وليدعوا لكم »
وهل كان ابو داود جاسوساً للاغيار فلفق الحديث ؟
وهب ان النبي صلى الله عليه وسلم نصح مرة هذا النصح لقومه
ايرضى ان يكونوا مستذلين مستعبدين مدى الدهر ؟ أحديثاً
تقدسون ! أسيفاً للباغي تصقلون وتشحذون ؟ أجواهر للطغاة
تصوغون ؟ وايم الله ان جواهر في تاج الظالم لاغلال في ايدي
الامة . وان سلامة الشرق والشرقيين لفي تحطيم التيجان والاغلال

قال ابن مسعود قال لنا النبي : انكم سترون بعدي اثرة واموراً تنكرونها . قالوا : فما تأمرنا يارسول الله ؟ قال : أدوا اليهم حقوقهم واسألوا الله حقكم . ان في هذه الحكمة طريقان قويمان الى عرش الكفر وسجن الايمان . في هذه الحكمة الشرقية وامثالها يحلل الظلم ويقدس الاستعباد . قوم يسودون لا واجب عليهم غير اللص والاغتصاب . وقوم مستعبدون تعودوا ان يسمعوا طائعين . ويسلموا صابرين ساكتين . ومعاذ الله ان تكون هذه سنة الحياة القويمة . ان عكس الآية في الشرق لهي عندي عين الحكمة . خذوا حقوقكم من الظالمين ايها الناس ومتحوهم على المشانق بحقوقهم .

***

لا تأمن شر الاغتصاب الا اذا اقتلعت عينه . الاغتصاب داوه بالاعتصاب .

***

ان بدوياً منتهى البلاغة عنده قوله : لا او نعم لافضل من اولئك الادباء المتخذلقين والسياسيين المرائين الذين يقضون حياتهم بين ال« لا » وال« نعم » مصانعين مذبذبين منافقين .

ابرشية الفريكة [١]

قد يسر قرائي ما انا مقتطفه اليوم من جريـدة الفريكة الرسمية . قال المحرر في محلياته :

قد آب الى كرسي الابرشية [٢] بعد ان غاب شهرًا حسبناه دهرًا . سيادة اسقفنا الجليل فاستقبل خارج المدينـة استقبالاً عظيماً واقيمت له حفلة تحت البطمة القديمة . نادرة المثال فخيمة. وما كادت تهتز الاسلاك البرقيـة بخبر قدومه حتى خف الى ملاقاته ابنـاء الرعية الكرام . تتقدمهم الجمعيات الخيرية والاصلاحية رافعات الاعـلام . هاتفات هتافاً رددت صداه الاكام . ونخص بالذكر من هاته الجمعيات « اخويـة الاقاحي » التي توارى تحت اعلامهـا البيضاء اخضرار الحقول . « وجمعية الشقائق » التي ملأت راياتها الحمراء الربى . و « حزب القندول الوطني » وبنوده الصفراء تنور في الجموع . فتغني الموكب عن

(١) هذه رسالة خيالية انتقادية شرحها لي ومتنها لصاحبه . وقـد اجتهدت ان اقتني هنا اثر الاساتيـذ الكبار عني الله عنهم وعني لجاء الشرح اكبر من المتن فيها جرياً على عادتهم الكريمة

(٢) اي ابرشيـة وادي الفريكة وتوابعهـا لطائفـة الطبيعيـين الارثودوكسيين القويين رأياً المعوجين طبعاً وخيالاً

الشموع . وما كاد يصل القوم الى البطمة المشهورة حتى اعتلى رئيس حزب الاصلاح الدكة فكان وايم الحق خطيباً . هز في الفضاء غصن بيانه فتناثرت منه الازهار والاشواك . فهتف الناس صارخين : ما وقف والله على منبر سواك . ثم اسفّ الحسون شاعر سيادته الرسمي فوقف على ذؤابة قندولة زاهرة وتلى في تهنئة راعينا وتمجيده . بل في نفجه وحلجه وتنجيده [1] قصيدة لو سمعها حافظ لكان لها حافظاً . ثم ارتجل السنونو احد شعراء سيادته الاحتياطيين ابياتاً من على سماقته هي السحر الحلال كما يقال ولفظ احد الجداء الحولية كلاماً في اصلاح الطائفة فتن به السامعين . ونثرت احدى البقرات النجل على سيادته زبداً من فيها هو ذوب اللجين . وقدمت اليه طفليها . عجلين توأمين . فقبلهما وباركهما وعلق في رقبة كل منهما عوذة العين . ومن ثم استأنف الموكب السير وسيادة راعينا شمس كواكبه فدخل المدينة وابناء الوادي في الحلل البيضاء والحمراء والصفراء ينشدون مهللين بيتين من الشعر نظمهما الدوري . فبرز على

(١) ما كنت اظن ان المعرر . حباً باستعارة جديدة . يسيء الى المادح والممدوح فيشبه الاول بالنجد والثاني بالفراش العتيق . على ان معنى الاستعارة بليغ ان لم يكن جميل . ومع ان الحسون وصاحبه على ما اعلم لا يستحقان مثلها فهي تنطبق على كثيرين من الممدوحين والمادحين . بل كم من فراش عتيق لا يساوي خيطاً من خيوط النجد المسكين .

المطران جرمانوس فيهما . وعلى الخوري . صاحب ديوان الشنطبوري [1]

قال شاعر السماقة يتأهل بسيادته

عدت وعاد الربيع　　عدت وعاد المناء

عليك سلام الربيع　　عليك سلام السماء

وقد قال الحسون ان شعر الدوري هذا من نوع الاناشيد الدينية التي يقيسها ناظموها بالاصابع ويقطعونها كالشعر ليكسبوها في الاقل ظاهر شكله . ووددنا لو كان في امكاننا اتحاف قرائنا الكرام بقصيدته الغراء (اي قصيدة الحسون) ولكن مخبري جرائد السماء التقطوا من الهواء دررها الغالية قبل ان تقع الى الارض .

---

(١) سألت محرر الجريدة الرسمية شرح هذه اللفظة المدهشة المرعشة فجاءني منه ما يلي — شنطبوري (بفتح ثم فتح فتسكين) لفظة مركبة من شنط كقنط من باب علم وضرب اي قدد . وبوري نوع من السمك الرديء المعروف . ومعنى اللفظة السمك القدد ونسبة ديوان الخوري اليها كنسبة السمك القدد الى ما في الديوان (احتراماً للقارىء اللبيب اضرب عن اسهاب المحرر صفحاً) الى ان قال : واللفظة من نحت اللغوي المعين رسمياً لجريدتنا فعسى ان تشيروا الى ذلك . انتهى . ولعله يريد ان انشر للغويه اعلاناً خدمة للمغرمين من الكتاب المصريين بمثل هذه الالفاظ الشنطبورية حباً وكرامة . والى هذا الاعلان المهم استلفت بالاخص نظر المويلحي والسيد المنفلوطي

على ان سيادة اسقفنا الجليل اخصنا بما جادت به قريحته في المأدبتين اللتين اقيمتا له تحت الزيتونة وتحت السنديانة [١] والخطبتان من نفائس الخطب . في الواحدة منهما ما يسمونه اعجاز الايجاز وفي الثانية بلاغة عجيبة ما وقفنا على كلام العرب في وصف مثلها [٢]

خطبته تحت السنديانة

قال اعزه الله . وايد في العالمين مبداه .

يا ايها الذين آمنوا . ثلاث ما قل قليلها · الغربه . والكربة · واضغان ذوي القربى · وثلاث ما كثر كثيرها · البرية · والحرية · والنعمة الالهية · جعل الله قسمتكم من تلك قليلة ومن هاته كثيرة والسلام

ومن خطبته تحت الزيتونة

اربع وعظتني اليوم فاعظكم بها —

رأيت الوردة تفتح للنور قلبها وتميل اليَّ بوجهها وهي تقول :

---

(١) يريد الزيتونة التي كان الاولاد يتعلمون في ظلها الزبور الالهي والسنديانة التي دفن تحتها معلم الاولاد . وفي اقامة المأدبتين هناك سر من اسرار الطبيعيين التي يعجز المحرر والداعي عن كشف غامضها .

(٢) يظهر ان المحرر غير مطلع على الحريري والشنافيري والهمذاني والشقشقاني والخوارزمي والخنفشارزمي وغيرهم من فطاحل العلماء ومصاقع الخطباء .

ان فيك ايها الانسان نسمة من جمالي ونفحة من شذاء كمالي . فهلا كنت نزيهاً في حبك مثلي ؟

ونظرت الى زهر المسيح وهو يلوح في شقوق الصخور كأنه واقف في بابه ينتظر عودة احبابه فسمعته يقول : تراني ايها الانسان احن حتى الى الصخور . فهلا كنت وديعاً مثلي ؟

ونظرت الى جبل صنين وقد بدت ذوائبه السوداء من تحت كوفيته البيضاء فرايته يخلع قميصه ليستحم في شمس الربيع وسمعته يقول : لا العواصف تقعدني ايها الانسان ولا السموم . لا الشتاء ولا الصيف . فهلا كنت ثابتاً مثلي ؟

ثم حولت نظري الى مغرب الوادي فرأيت اشجار الصنوبر الشماء تزدحم على ربوة هناك وقد ضاقت بها التربة فاشتبكت اغصانها وجذوعها بعضها في بعض وسمعتها تقول :

ان فوق رؤوسنا وتحت اقدامنا ما يكفينا . فهلا كنت ايها الانسان قنوعاً مثلنا ؟

فيا ايها الذين آمنوا ان في الجبال . وفي الاشجار . وفي الازهار لآيات لقوم يسمعون ويبصرون . قل جعلني الله نزيهاً كالورد . وديعاً كزهر المسيح . قنوعاً كالصنوبر . ثابتاً في الملمات كصنين . حديث شريف اسمعنيه الله واني لحديثه من السامعين ويرسل ربيعه من المؤمنين

هذا ما اقتطفته من جريدة الفريكه الرسمية لقراني الاعزاء

لقوم يبصرون فيستبصرون · ويسمعون فيؤمنون ·

واما المستحجرة قلوبهم والمتجزوتون [1] فانهم وان انذرتهم لا يؤمنون ·

هذا ولقد طالما تاقت النفس الى كتابة رسالة شائقة · عربية المعنى والمبنى · اي عربية الحروف والمفردات والجمل · وعربية الحبر والورق ايضاً · اكراماً لاسيادي المتنطسين فاطرزها بالتفاسير واكشكشها بالشروحات · فيقول الناس عند قراءتها : لله دره ما ارسخه في اللغة قدماً وما اطوله باعاً . ولكني اعجز والله عن مثل هذا · وجئت خالطاً الان شيئاً يسيراً من عجزي في هذه الحفنة من « البذور » · واستغفرُ الله بداية ونهاية في ما قد يعده قرائي الاعزاء واسيادي الاساتيذ تطفلاً · واسأله تعالى ستراً يمتد على تلفيقات ليس لها حد · ولكنها تلفيقات فيها من الحقائق والرقائق ما لا تخفى اسرارها على المؤمنين ·

---

(١) في القاموس – في لسان الانكليز والافرنسيس لا لسان العرب – مادة جزويت كثيرة المعاني والاشتقاقات · فهناك Jesuitize فعل لازم اي تخلق باخلاق الجزويت وفعل فعلاتهم ,Jesuitry ' Jesuitical وغيرها من الاشتقاقات المفيدة · وكي لا يكون اصحابنا مغبونين عندنا جئت مقترحاً ادخال هذه المادة الى لغتنا العربية الشريفة بل جئت مدخلها بلا استئذان · فقلت جزوت يجزوت جزوتة كشعوذ اي تخلق باخلاق الجزويت ·

على الارض السلام

« على الارض السلام » مقالة طالمناها في جريـدة تدعى الأبوقَلِبْس . ننقلها الى قراء اللغـة العربية لا خدمة لدولة من الدول المتحاربة . ولا تعزيزًا لمبدأ من المبادىء السياسيةالمتغالبة. ولا من اجل امة من الامم المنكوبة . ولا اكراماً للحقيقة المهانة المصلوبـة . ولا حباً بالوطنية التي اسكتت المدافع حكماءها . وبلبلت المخلصين من ابنائها . ولا بغية ان نهدي احدًا او نضلل احدًا من الناس

ننقل المقالة الى قراء اللغة العربية لانهم ألفوا في هذه الايام المنقول – معقولاً كان او غير معقول . والمألوف غالباًمستحب. والمستحب حجته برقبته . ونأسف اننا لا نستطيع ان نهدي كل واحد من القراء وبالاخص السوريين بركة من الاثر الذي عثرنا على الجريدة فيه . فالسوريون اجـدر الناس بمثل ذي البركة والاكرام .

كيف لا ونحن ارقى الشعوب فكرًا واعظمهم قـدرًا . واشرفهم نفساً . واسلمهم عقيدة . وابعدهم نظرًا . واشدهم على جواهر العقل حرصاً . كيف لا وفينا شيء من كل الامم ما

سوى جنون الامم . كيف لا.وقد رفضنا ان نحارب من اجل الوطن او نبذل في سبيل استقلاله قليلاً مما هو اليوم أبخس الاشياء . ولكن الدم السوري عزيز والنفس السورية أعز . والسوريون حتى البقالون منهم لم يؤخذوا بخزعبلات الوطنية وبما يزينه من الاوهام أدعياء الوطن . فهم ابعد الشعوب نظراً . واثقبهم فكرة . اي والله ! واساهم عقيدة . واشرفهم نفساً . فالسلام على السوريين اينما حلوا . وكيفما ضلوا . واليهم خصيصاً نزف هذه المقالة من جريدة ألأبوقَلِبْس .

وقد يتساءلون : وما جريدة الابوقلبس ؟ ومن هو كاتب المقالة التي نشرها اليوم بمجلة عربية ؟ فهاكم القصة :

لما كنا السنة الماضية في اسبانيا خرجنا ذات يوم من مدينة على شاطىء البحر المتوسط نبتغي النزهة . فوصلنا بعد ان اجتزنا مسافة خارج الصور الى صخور تغسل اقدامها الامواج وبينها بقايا مركب عرفنا من حرف على صفحة من حديد مكسرة مصدئة انها غواصة (صبارين) المانية . وبين بقايا هذه (الغواصة) عثرنا على فرد وجمجمة منشور رأسها وقد سد بالورق . فرفعنا السدة ففاحت من الجمجمة رائحة الخمر . فقلنا : وهذه من فظائع الالمان . يشربون الخمر اليوم بجماجم الاعداء مثل اجدادهم في غابر الزمان . ثم كشفنا الاوراق فاذا بها جريدة الابوقلبس وفي صدرها ما يلي :

«جريدة بشرية»

تصدر في رأس كل سنة في اي لغة كانت في اي مكان كان

يحررها فريق من الكتاب لا وطن لهم ولا دين

ويساعد في تحريرها بعض من كانوا بالامس وزراء .
واصبحوا اليوم ممن ينطقون حقاً . ويقولون صدقاً .

اشتراكها جمجمة من جماجم الاعداء

وعلى هامش احدى صفحاتها كتب بقلم رصاص ما يلي:

انا جوهان شميت قبطان الغواصة (100-U)

اغرقت في شهر واحد خمسين مركباً من مراكب العدو . منها باخرة كبيرة اقلت ركباً كثيرين فيهم عدد من النساء والاطفال . ما نجا منهم احد . ومنها مركب شحن عجبت لشجاعة قبطانه فخلصته واثنين من بحريته وأنزلتهم غواصتي . وأقمت واياهم يوماً وليلة تحت الامواج وفوقها الى ان اوصلتهم الى الشاطئ سالمين فاعطيتهم موءونة يوماً من الخبز واللحم المقدد وقنينة من الخمر . فوضعها القبطان في الحقيبة التي كان قد خلصها وودعني قائلاً :

(ياهر شميت) ، انت الماني شريف النفس . كريم الاخلاق . فعسى ان تجمعنا التقادير بعد هذه الحرب فنردد ذكرى هذه الايام العصيبة واكافئك على معروفك حق المكافئة .

« ثم اخرج من حقيبته جمجمة فاهدانيها قائلاً : هي اعز

ما لديّ الان ارجوك ان تقبلها ذكرًا مني · فقد كان صاحبها من ابناء وطنك ولم يكن شبيهك بغير الشجاعة · اسرني ذات يوم في وسط الاوقيانوس وجوعني ورجالي ومثّل باحدهم ترويعاً ولكن على الباغي يا (هرشميت) تدور الدوائر · المثل بالمثل في هذه الايام السوداء · سن بسن · وجمجمة بجمجمة · فاليك اهديها · اعيدها الى الماني كريم الاخلاق . وهذه الجريدة طالعها فانك على ما ظهر لي ممن يعرفون الحقيقة ويحبونها . في جانب الله كانت او في جانب الشيطان » ·

« نعم (جوهان شميت) يحب الحقيقة ويعرفها ان كانت لابسة خوذة المانية او قبعة انكليزية · فقد طالع هذه الجريدة الصغيرة وخطت يده هذه الاسطر على هامشها قبل ان قبضت على المسدس الذي خلصه من جهنم هذه الحرب · ولا يظن احد اني هربت من واجبي او اني جبان · انا قبطان (الغواصة) U-100 – خمسين مركباً من مراكب العدو أغرقتها في شهر واحد – فما بقي الا مركبي اغرقه ودماغي ابعثره . وانا في عملي الان اخدم الماتيا العتيدة · بل اخدم الانسانية التي ستقيم في الامم سيادة علوية جديدة ·

قبطان (الغواصة)

« جوهان شميت »

هذه قصة الجريدة التي لقيناها على شاطيء البحر المتوسط

في اسبانيا . وفيها قصة القبطان الالماني الشجاع . الكريم الاخلاق . اما المقالة الرئيسية فيها فهذا عنوانها كاملاً :

« على الارض السلام »
« ورصاصة مسك الختام »
« لام »

ومغزى المقالة هو ان كاتبها الذي يتمنى ان تنتهي هذه الحرب بل يصيح بالامم المتطاحنة صيحة انسان عاقل مجرد من الغايات السياسية والجنسية والشخصية يطلب من الدول باسم الانسانية المصلوبة والشعوب المنكوبة ان تقرر امر الحرب بالتصويت العام لا في الاجتماعات السرية في النظارات الحربية والخارجية . فلو سئل كل امرئ في الامم المتحاربة اليوم ما اذا كان يريد ان تستمر الحرب او تنتهي بهادنة يتبعها صلح عام لاجاب قائلاً : لتنته الحرب . ليستتب السلام . وكاتب المقالة وزير من الوزراء ادار شؤون الحرب في نظارته سنتين ثم اعتزل السياسة .

اما عنوان المقالة ففيه غموض بل نكتة يعسر علينا بادئ بدء فهمها . ولكننا بعد ان تصفحنا الجريدة كلها وجدنا ان محرريها متفقون بالقاء مسئولية هذه الحرب على رجل واحد في اوربا . وهذا الرجل يدعى (وليم هوهنزولرن .) وهم متفقون

ايضاً في ان جزاء العمل من مثله . ولكن من يقتل الملايين من الناس او يسبب قتلهم يمسي خارج الشرائع العاديـة . الطبيعية منها والاجتماعية . فما معنى اذن « ورصاصة مسك الختام . لام » ؟ ليست « اللام » اسم الكاتب ولا هي عبـارة مختزلة غامضة من مثل ما يفتتح بهـا المحرر اكثر مقالاته وآياته . وانما هي لام بسيطة اي ل الجر او الوصل . وغموضها ينجلي في عبارة صريحة نقتطفها من الجريدة . وها كها :

« حرية الفكر في العالم اليوم مقيدة. لذلك نلجأ في الاحايين الى الالغاز . وقراؤنا الألباء يكتفون باول حرف من الكلمة او باول برعم من الفكرة . »

هذا مفهوم . و « مسك الختـام رصاصة » مفهوم ايضاً . ولكن رصاصة لمن لِ (وليم هوهنزولرن) ولا ريب. وكاتب المقالة يقترح ان تهدى الرصاصة اليه يتصرف بها كيف شاء . ومن رأي احد قراء تلك الجريـدة ان يقرر ذلك في مؤتمر السلم وان يستحضر ممثلو الامم في المؤتمر بربرياً من برابرة افريقيا ليحمل الرصاصة الى (وليم) المذكور . وهذا حكم الانسانية على عدو الانسانية . ونقتطف ايضاً من جريدة الابوقلبس مما يتعلق بالموضوع ويجلي غوامضه ما يلي :

« المجرمون الصغار تقاصهم الحكومة . والمجرمون الكبار يقاصهم الله . وما لمن ينكره من هؤلاء حتى الله . ويأبى ان

يدنس ناموسه به . الا زبانية الجحيم يناديهم قائلاً :

قاتل نفسه يقرئكم السلام .

والى قراء العربيــة بعض آيات باهرات من جريــدة الابوقلبس :

لس عود [1] . ورب الوجود . للبشر عـدو لدود . رأسه الجنود . والطبول والبنود . ومعامل البارود .

. . . . .

لحل [2] ورب الفكر والعمل . لا تقطع الامل . ولا تكن من المتعصبين . للوطنية او للدين . الحروب و كروبها . على الملوك والسياسيين ذنوبها .

. . . . .

سنح [3] والمقيد ما فلح . عقل الامم اليوم في صحافتها . والصحافة في القيود . تمجد البنود . وتكثر السجود . لرب القرود . المقدس الحدود . ارفعوا الابيض من البنود . او الاحمر و كسروا القيود .

. . . . .

الحقيقة المصلوبة تناجي ربها . وتستعيذ ممن يدّعون حبها .

. . . . .

---

(١) لس عود — اي لسنا من المتعصبين وطناً او ديناً :

(٢) لحل — اي لسنا من حزب الحكومة او من حزب العمال .

(٣) سنح — اي بسم الانسانية والحرية .

سنح . ومن فلح . لاتنتهي هذه الحرب حتى تشترك بها كل الامم . فسارعي ايتها الامم الى السلاح . على جارتك اشهريها لذنب او لغير ذنب ليشبع البشر من الحرب . ليشبعوا اليوم .

دقوا الطبول قبل ان تكسروها . ارفعوا البنود قبل ان تمزقوها . الوطنية اليوم ايها المجانين والانسانية غداً .

. . . . .

لسبيم [1] والرب الكريم . وزبانية الجحيم . كان للبشر في ما مضى من الزمان ثلاثة اعداء — الجهل . والنعرة الدينية . وروساء الدين . وللبشر اليوم ثلاثة اعداء — الجهل . والنعرة الوطنية . والجرائد .

وقاف [2] وسورة الاحقاف . ورب الاحلاف . التعصب الوطني مثل التعصب الديني - لكل اجل .

الصحافة المضللة مثل روساء الدين المضللين — لكل اجل .

السيادة العسكرية مثل السيادة الخرافية — لكل اجل .

وليم هوهنزولرن مثل نقولا رومانوف وعبد الحميد — لكل اجل .

الاشتراكية الكاذبة مثل الاديان الكاذبة - لكل اجل .

---

(١) لسبيم — اي لسنا من الباسيفيست (السلميين) او الميليتاريست (الحربيين) .

(٢) وقاف — اي والحق

الباسيفيست الاعمى مثل الجندي الاعمى — لكل اجل ·

حكم الفوضى مثل الحكم المطلق — لكل اجل ·

ادعياء الحرية مثل ادعياء الدين — لكل اجل .

صياح الزعماء مثل تمويه الوزراء — لكل اجل ·

سفسطة المتكلمين مثل تفوق المتوحشين — لكل اجل ·

الشعوب المظلومة باسم الوطن مثل الشعوب المظلومة باسم السلطة المطلقة — لكل اجل ·

جشع المتمولين مثل نفاق الاشتراكيين — لكل اجل .

من يغتنون اليوم من معامل المدافع والقنابل مثل الجياع والمرضى في البلدان المنكوبة — لكل اجل ·

وقبل ان ينقضي اجلهم كلهم عبثاً تنادي : على الارض السلام · على الارض السلام !

لس عود · ورب الوجود · لسنا من المقيدين الا بالانسانية · ولسنا من الساجدين الا لرب البشر ·

. . . . .

عدو البشر العنيد · اضربه بالحديد · وهات جمجمته · نزين بها قصر السلم الجديد ·

شبلي الشميل

في الشرق نوع من النبوغ قلما يدرك الشرق كنهه · وفي الشرقيين خاصة صنف من آل العلم والعرفان قلما يقدره حق قدره . مثلٌ منه رجل قد تقل تآليفه وتكثر نفحاته · يرسل نفسه نورًا في الناس عملاً لا كتابة · فكرًا لا قولاً · يتشرب ما يوحى اليه مثلما تتشرب الازهار النور والندى ومثل الازهار يبثه عفوًا اريجاً طيباً · حياته الدنيا نبراس يستضيء به الناس . وجوده اينما حل منهل عذب يرده الادباء عشاق الحرية والحقيقة والكمال · كلمته المقولة نبأ اثيرى تتناقله دوائر الادب وتتلقفه الالباب . كلمته المكتوبة حجة على الباطل وضربة على الضلال قاضية · قد لايعمل بذاته عملاً خطيرًا ولكنه يستنهض للاعمال الخطيرة انفساً آنس فيها النبوغ . قد لا يؤلف كتاباً خالدًا ولكنه يوحي الى غيره خالد الآراء والايات · يوقف حياته لا للشهرة والمجد . ولا للثروة والسيادة . بل لخدمة الحقيقة · وخدمة الامة · وخدمة العلم والادب في الاثنتين · يكبر اعمال الناس مهما صغرت اذا كان فيها ذرة من الحق · ويستصغرها مهما كبرت اذا كان فيها ذرة من الباطل · عقله شمس مشعشعة لا

ليل يحجبها · ضميره بستان زاهر ربيعه لا يزول .

مثل هذا الرجل إرث روحي يستثمره النـاس دون ان يضجوا باسمه · مثل هـذا الرجل دائرة نور تضيء · فتشعشع . فتتسع . فتتفكك فتولد دوائر اخرى نيرة في قلوب الشعوب الدانية والقاصية · نفس هذا الرجل حلقة رقي دائم تربط جيلاً بجيل وامة بأمة . وما موته اذا فقهنا سر النبوغ غير مظهر من مظاهر حياته ·

مثل هذا الرجل يندر في المغرب على رقيه ونهوضه ولا يندر في المشرق على خموله وجموده · نوابـغ الغرب ينشأون في وسط تعددت طبوله وزموره . ونوابـغ الشرق يقنعون بما يـكتنفهم من سكون واهمال . وقد تـكون هذه الحالة في عين الحكيم خيراً من تلك واجمل ·

شبلي شميل ممن وصفت ·

شبلي شميل خير مثال لهذا النوع من النبوغ في الشرق . فيحق للامـة العربية ان ترثيه ويغتفر لها الاطراء في الرثاء · تعودنا نحن العرب الغلو في تعداد فضائل الميت كما تعودنا اهمالها في حياته · وقد لا نـكون مسؤولين في الحالين وشأننا في تقاليدنا معروف ·

كاتب هذه الكلمة واحد من الالوف الذين اتصلت بانفسهم شعلة من نفس الشميل فأضرمتها غـيرة على الحق · وشوقاً الى

الحرية · ولو برهة من الزمان · وهي كلمة وجيزة · والشميل يستحق كتاباً سيكتبه ان شاء الله من هو اهل لذلك .

قد تكون هذه الكلمة خالية من الرثاء ولكنها لا تخلو من الاطراء · ولا غرو وكاتبها من محبي الشميل ومريديه · ولكن بدل ان نبكي الرجل يجب ان نسر كامة ونفتخر انه نبغ في الشرق . وان موته كما قلت ان هو الا مظهر من مظاهر حياته .

مات شبلي شميل ثابتاً لا شك في اعتقاده او في عدم اعتقاده . وامره والآخرة وربه . ولا ريب عندي انه سيكون من المقربين اذا آمنا بما أنزل في الكتب المقدسة . بل اني على يقين انه اسعد في حاله اليوم — ولا عدمية لمن كان مصباح هدى في الناس — مما كان بالامس . من محاسن شبلي شميل انه ثبت في مبادئه حتى آخر ايامه . فقد كان اول من نشر مبدأ النشوء والارتقاء في الامة العربية وظل متمسكاً به حرفاً وروحاً بين ان اشياعه الاولين في اوروبا تدرجوا منه الى مبادىء اخرى لا سبيل الآن الى ذكرها . ومهما كان من امر فيلسوفنا في هذا الصدد فان اخلاصه باهر . وتجرده ظاهر . كافراً عُدَّ او مومناً وان ما ندعوه كفراً او زندقة امسى زياً عند الادباء يتحلون به في شبابهم وينبذونه غالباً اذ يتجاوزون سن الاربعين . وعذرهم في ذلك ان الخبر والزمان يعلمان المرء ما لا تعلمه الكتب . قد يصح ذلك . ولكن الحماسة من مزايا الشباب الجميلة . والحقيقة تألف

الحماسة وتهواها .

وعندي ان النبوغ الحقيقي هو ما تدوم فيه تشويقات الشباب وحماس الشباب . وفيلسوفنا الشميل ظل شاباً في اعتقاده . شاباً في مبادئه . شاباً حتى آخر ايامه في حماسه . ومن الحقائق الراهنة ان المرء اذا لم يكن ذا شأن في الهيئة الاجتماعية يذكر يكن غالباً جريئاً في رأيه . جريئاً في الجهر باعتقاده . واما اذا طمع بأشياء الدنيا . او حاز مقاماً بين الناس . او امسى ذا ثروة او سيادة . تستولي التقية على علمه وادبه . فيلطف من شدة لهجته ويجعل المداراة رأس سلوكه . وهذا ما لا يصح ان يقال في شبلي شميل .

لو طلب هذا النابغة السوري سيادة لجاءته صاغرة . لو طمع باشياء الدنيا لنال منها كثيرها واصبح ثرياً عبقرياً في قومه . ولكن سيادة العلم فوق كل سلطان . وشبلي شميل البس هذه السيادة لباس العفة والنزاهة . ولم يسيء اليها يوماً بشيء من التذبذب او المجاملة او المداراة . خذ كلمة من كلماته في شيخوخته تظنها كتبت في شبابه . وفي حملاته على الظلم والظالمين . كما في مباحثه الاجتماعية والعلمية . كان التجرد والاخلاص من عوامل نفسه الحية ابداً القوية .

اجل . ان من اجمل ما فيه استهتاره في سبيل الحق والحقيقة . تمشي في الارض سامد الرأس . عالي الهمة . ابي النفس . طاهر

الذيل . مضطرم الفؤاد . بعيد النظر . صلب العود . شديد اللهجة . لا يدنو الا من الفضل في الناس . ولا يلين . لغير الحق في اعمال الناس .

رفع لواء التمرد على طغاة الزمان. وارباب الضلال والبهتان . مذ دخل ميدان الفكر والعلم ولم يخفضه يوماً في حياته . ولواؤه لواؤنا . حمله وحده بالامس وستحمله الامة امتنا غداً . ان هذا السوري الكبير سئم مما في الامة الشرقية من جهل وخمول . وجمود وسبات . فصرخ فيها صرخة مستنهض دوت في العالم العربي قاطبة . وسيردد صدادها كل اديب حر مسلماً كان او مسيحياً . وماذا يهم اذا كفروه وهو من مصابيح الاجيال المقبلة ؟

قلت ان من رجال العلم والعرفان في الشرق من يبث روحه قولاً وفعلاً اكثر منه خطاً ونشراً . ومع ان تآليف الشميل وحدها كافية لان تجعل له مقاماً سامياً عزيزاً في الامة العربية ففي حياته الفردية من المآثر ما يماثلها ان لم نقل يفوقها فائدة وفضلاً . وعسى ان يفي هذا الباب من سيرة حياة فيلسوفنا الكبير من يباشر غداً تأليفها . فقد كان ولم يزل له سيادة على العقول غير السيادة التي تولدها التآليف . وقد كان ولم يزل له منزله في القلوب غير التي يحرزها النبوغ . شبلي شميل غرس طاهر غرسه الله في الناشئة العربية الجديدة . وسينمو بعد موته اكثر من نموه في حياته .

جرجي ديمتري سرسق

دُفنت في الترب ولوا انصفوا ما كنتُ الا في صميم الفؤاد

على ضريحك ازهـار من جنات الحب والبر جميلة . وفوق جثمانك نور من انوار الله المقدسة الجليلة . وحولك قلوب تحترق اليوم بخورًا فيتصاعد الى السماء امامك ويضمخ اعلامـاً انارت لياليك وايامك . كنت في الامس للناس زعيماً . فاصبحت اليوم لربك كليماً . قرّبك منه تعالى جهادٌ في سبيل الحق والبر والحرية . يندر مثله في بلادنا السورية .

ايها السادة

عاش فقيدنا حرًا لا يعرف الا الواجب سيدًا . ومات حرًا لا يعرف غير الله عميدًا . عاش شريفاً صادقاً ابياً . ومات شريفاً صادقاً ابياً . عاش شجاعاً ومات شجاعاً . فقد رأيناه يبش لاصحابه ويحدثهم ضاحكاً حتى في الساعة الاخيرة الرهيبة . وقد سمعناه في اليوم الاخير من حياته الدنيا يقول لطبيبه :

يا حكيم في مكتبتي رسائل عديدة ينبغي النظر بهـا فقم انت فيها مقامي .

وليست الرسائـل هذه من اشغاله الرسمية بل هي مما كان

يتوارد عليه دائماً من المظلومين والبائسين . من اللاجئين الى رحمة في فؤاده جمة . وعدل في صدره عميم . واريحية لاتعرف التجهيم . اجل فقد كان قلبه بحراً تجري اليه انهر من هموم الناس وشؤونهم . وما رد يوماً سائلاً . وما كان الى غير الحق والعدل مائلاً .

فيا له من خطب جلل افقدنا رجلاً حقاً قديراً . وصديقاً صدوقاً غيوراً . وعاملاً في سبيل الحق عزوماً جسوراً . واميراً من امراء الاحسان كبيراً . وفيلسوفاً في الشدائد صبوراً شكوراً . وان خسارة آله فيه واصحابه لجزء من خسارة الامة والوطن . فلتبكه الامة وليبكه الوطن .

كلنا نعلم ان جرجي ديمتري سرسق لم يكن في سبيل الانسانية قوّالاً . بل كان فعالاً . لا يمل العمل . كان جندياً لا يسكره الفوز . ولا يقعده الفشل . كان من الزعماء المجاهدين الذين تكسبهم النزاهة والاخلاص احترام الناس اجمعين . الاصدقاء منهم والاعداء . كان خصماً اديباً حليماً شريفاً . ولم يكن كخصومه حقوداً لدوداً عنيفاً . وقد نال في طريقته هذه القويمة الجميلة ما يعجز دونه اصحاب المكايد والدسائس والاضاليل . وقد اخبرني مرة انه رافق القنصل يوماً في زيارة الى احد المعاهد العلمية في الثغر . فلما رآه رئيس ذلك المعهد بادره قائلاً : لسنا على ما ارجو بأعداء فاجابه فقيدنا العزيز لا اعرف

غير الضلال عدواً .

اذا كانت هذه منزلته عند الخصوم فماذا عساها تكون عند الانصار والاصحاب . حبذا الرجال مثله وحبذا الزعماء . وحبذا الاصدقاء — اصدقاء الانسانية والادب . انصار المبادىء الشريفة الحرة السامية .

فلو جاء اليوم من احبوه واحترموه واكبروه كلٌّ بزهرة واحدة الى ضريحه لبات فقيدنا وحوله ربى من الازهار جميلة .

ولو رفع الى الله الدعاء له كلٌّ من احسن اليه لملأت كلمات الدعاء ارجاء السماء .

وهما كان القبر ايها السادة — مقرّاً ابدياً او جادة المهية — فان فقيدنا لمن يقدسون القبور وينيرونها .

وهما كادت عقيدة المرء الدينية او العقلية في هذه العاجلة الفانية . فان تقديسه الواجب .وتفانيه في سبيله المجيد .ليجعلانه من الاتقياء الاطهار . والمقربين الابرار . ولاخوف على هؤلاء في الاخرة ولا هم يحزنون .

الترقيع في العمل

ابناء وطني

يصح في زحلة قول الشاعر :

وأستكبر الاخبار قبل لقائها فلما التقينا صغر الخبرَ الخبرُ

قد احببت هذه المدينة واحببت اهلها يوم لم اكن اعرف من وطني سوى اسمه — يوم كنت في الولايات المتحدة . وعند ما عدت الى سوريا كانت اول رغباتي ان ازورها فجئتها ماشياً من الفريكه ونسيت مشقة السفر ساعة اشرفت عليها من بين الكروم فتذكرت اذ ذاك ما كان يقوله أصحابي في نيويورك وقلت صدقوا والله — زحلة عروس مزينة ! فان منظر مدينتكم من اي من هذه المشارف حولها لمن أبهج المناظر التي شاهدتها في لبنان .

وقفت بين الكروم على تلك الربوة الجميلة وحييت المدينة التي هي مسقط رأس اعز اصدقائي في الغربة . وحييت فيها بواسق الحور الناطقة بلسان حال رجالها . وروافه الصفصاف الناطقة بلسان حال نسائها . ولجين البردوني الجاري في حياة ابنائها . ووقفت متأملاً هذه المدينة المختبئة بين الجبال كلؤلؤة بين الصخور . او كزنبقة بين الادغال ورددت قول الشاعر

الانكليزي —

« كم زهرة وسط الآفاق عابقة   وحسنها غير منظور من البشر »

ولكن شذا زحلة كشذا تحيات صديقي المعري في رسائله اذا مرّ في الصحراء عطر منها شواسع الارجاء . شذا زحلة وفيه مزيج من البخور الذي كان يحرق بالامس على مذبح الخرافة . فصار يحرق اليوم على مذبح العلم . كان يحرق بالامس امام اصحاب السيادة فصار يحرق اليوم امام الشعب والوطن . كيف لا وفي مثل هذه الحفلات ينور عقل الامة . ومنها ينبعث طيب التهذيب والعرفان . كيف لا وفي هذه الحفلة دليل واضح على ان كهنة الله الحقيقيين يخرجون من معسكر الجهل والاستبداد لينصروا ابناء النور على اسياد الظلمة .

تسرني بل تبهجني مظاهر الحياة الجديدة المتجسدة في نهضاتنا الوطنية ومساعينا الادبية . ولكنني لا استحسن تعدد المقاصد والمسالك فيها. فلو ان الجمعيات في البلاد عملت كلها شهراً واحداً فقط لغرض وطني واحد لكنا في اسابيع قليلة نصل الى نتيجة لا توصلنا اليها السنون الطوال . لو فكرنا كلنا في وقت واحد في امر واحد وعقدنا الاواصر عليه ووطنا النفس الا نذره قبل ان نحل العقدة فيه او نقطعها لكنا نصل الى شيء حسي جميل في مشاريعنا ومساعينا . ولكن الذين يدينون بدين الله دون واسطة سماسرة الدين . ويجلون الحرية والوطن دون ان يقدسوا الاحزاب

والجمعيات . لم يزل صوتهم متضعضعاً وكلمتهم لم تزل متشتتة . ولا اقول ان عددهم قليل لان صوتهم لو كان واحداً وقلبهم واحداً . في ظل الارز او حول الشاغور . او في وادي الفريكة . كما هو في زحلة لكانوا على قلة عددهم يأتون بما لا تستطيعه الاحزاب اللبنانية كلها من الاعمال الوطنية التي لا يشوبها التحيز الديني . ولا يفسدها التغرض السياسي او الشخصي . نعم نحن في حاجة الى جامعة لبنانية تهذيبية تؤسس في الجبل المدارس الوطنية الحرة . وتنير فيه المنابر الادبية الحرة . نحن في حاجة الى جامعة لبنانيةمن هذا الشكل تبعد عن المصلحين واصلاحهم والمرقعين وترقيعهم . وتباشر تأسيس معاهد جديدة لحياتنا الاجتماعية الجديدة . المدارس الحرة والمنابر الحرة هي التي تشعل مصابيح العلم والتهذيب في الشبيبة وفي الشعب . لان مثل هذه الحفلات هي والحق يقال مدارس الامة العالية . مدارس الرجال والنساء . لكني ارى ان الامة لم تزل بعيدة عنها على ما في البلاد من الاقبال عليها . لم يزل بين المجموع العظيم الذي هو الشعب وبين صوتنا جدار هائل مظلم شيدته الاجيال وقدسته السيادة . ولم نزل اذا شرعنا نعمل عملاً ادبياً كان او سياسياً نباشره ونحن واقفون في ظل الجدار الشامخ فيتلاشى امامه شيء كثير من قوانا . لذلك ارتئي ان نبعد قليلاً قبل ان نرفع صوتنا فيصل اذ ذاك صداه الى ما وراء سد الجهل المنيع . ومعلوم ان في الحرب

لا تطلق العساكر نارها على قلع العدو الا من مسافة معلومة ٠ لنخرج اذاً من هذا الظل المهلك قبل ان ترفع صوتنا ٠ والذين يقيمون هناك ويصيحون كن يقف في سفح جبل صنين من جهة البحر وينادي من هناك الزحليين ٠ فمن لا يستطيع ان يصعد في الجبل اذاً ليصل الى ذروته عليه ان يدور حوله او يبعدعنه ٠ ثقوا ياسيادي ان الصوت الذي يجب ان تسمعه الامة عاجلاً او آجلاً وتنقاد له انما هو صوت من كانت حنجرته سليمة وصدره خالياً من جراثيم امراض هذا الزمان — من حب الشهوة وحب السيادة وحب المال ومحبة الذات الخبيثة ٠ اما المصدورون والمعتلة حناجرهم فكلما صيحوا دنا اجلهم ٠ دعوهم اذاً يصيحون وهم لتماثيلهم عاكفون ٠ وفي الظلمة الى حاجاتهم يحلجون ٠ ان الله عالم بما يفعلون ٠ دعوهم يصيحون ويهرجون ويحرفون ويجرمون ٠ ولكنني انصح لكم ان تخرجوا من مستنقعاتهم القتالة ومن ظل صداقتهم المهلكة ٠ اخرجوا فان الله مع الخارجين ٠ صعدوا في جبال الحقيقة فان الله مع المصعدين ٠

الكلمة المفيدة احب الينا ان تحفظوها دون ان تصفقوا لها استحساناً من ان تستحسنوها ضاجين وتنبذوها بعد ذلك غير مكترثين ٠ الكلمة المفيدة وان خرجت من فم الجمال ينبغي ان نزرعها في قلبنا لتثمر في اعمالنا ٠ ولكننا لم نزل نطرب للقول ونحجم عن العمل ٠

كنا في الدور الماضي لا نسمع من الامـة سوى صدى التأوهات والانين . فجآء الدستور ينشدنا شيئاً من نشيد الوطن الذي لم ينظم كله بعد لينسينا آلامنا ويرينا بوارق آمالنا . ولكننا لم نزل في ما كنا عليه من الصخب والفوضى فلا نسمع من نشيد الوطنية الا الوقفات المحزنة . والصيحات المزعجة . وبدل ان نقف قليلاً ونسكت لنسمع ونستفيد . لنفكر في ما نحن فيه وفي ما نحن اليه سائرون . لم يزل كل منا يغني على ليلاه ويستر برقعة من ثوب الحرية عراه .

نعم تراثا نمزق ثوب الوطن لنرقع ثوب الاحزاب . نمزق ثوب الحقيقة لنرقع ثوب الدين . ومهما تعددت مساعينا الوطنية ومشاريع حكومتنا الاصلاحية فان هي الا من باب الترقيع والتجبير . لنرقع نظام لبنان . لنجبر رجل لبنان . لنصلح مدارس لبنان . وربي صرت اكره لفظة الاصلاح بقدر ما كنت ارددها في الماضي . ذلك لانني اكره الترقيع في الامور . واصبحت اعتقد ان القديم البالي الذي لا يمكن نبذه — ان كان في الرجال او في المبادئ — لا يمكن اصلاحه . نظام لبنان . اطبخوا لنا على ناره طبخة من العدس فنشكركم . رجل لبنان المكسورة . اقطعوها قبل ان ينخر السوس في كل العظام . رجل من خشب خير منها . مدارس لبنان اقفلوها فتصلحوها . خير للشعب ان يبقى امياً من ان يسقى من الجهل والذلة والتدين ما يكفي ليقتل اعظم امة في

العالم .

الذي لا يمكن نبذه في مثـل حالنا لا يمكن اصلاحه . والعكس بالعكس . فكروا قليلاً في هذه الحقيقة فانها تنطبق على امور وشؤون كثيرة في الحياة . ان كلفنا الزائد في الاشياء يجعلنا عبيداً لها . ومهما صار من امر فسادها وافسادها لانستطيع نبذها ولا اصلاحها . وان انقيادنا الاعمى للرجال لا يمكننا من نبذهم عند ما نشعر بضرهم . ولكن اذا هم عرفوا اننا قادرون على ذلك . ان لم يعدلوا ويستقيموا . فلا تشغلنا بعدئـذ مسألة اصلاحهم . وبكلمة اخرى خادم في بيتك اذا كنت لا تستطيع طرده عند ما يستحق الطرد فلا تستطيع اصلاحه عند ما يتهامل في واجباته . كنيستك التي هي بيت الله اذا كنت لا تقدر ان تستغني عنها عند ما تصير بيت باعال فلا تستطيع اصلاحها . ابنك الضال اذا استأنس منك ضعفاً في واجباتك الابوية يستبد في امره ويستمر في غيه . فكم بالحري كاهنك او حاكمك اوشيخك او اميرك او معلم مدرستك . القوة الاحتياطية اذاً . ان كان في الامور المالية او الامور الادبية والاجتماعية . هي الزم من القوة المستخدمة . فهي التي تحفظ استقلالنا وشرفنا . وتعزز حرية عقلنا ونفسنا . تجاه من هم فوقنا ومن هم دوننا .

اما الترقيع في الامور فهو عين الكذب والخداع . اذ نكذب بالرقعة على انفسنا ونخدع بها الناس . وعندي ان ثوباً بالياً خير

من ثوب مرقع . وشحاذًا من شحاذي ارمينيا خير من الشحاذين الذين يوهمون الناس انهم من المحسنين . لان الاول صادق في ظاهره وباطنه والثاني كاذب في الاثنين . الاول تعرفه اذ تراه . والثاني يخدعك وجهه وقفاه . ولكنك لا تستطيع ان تخدع الناس الى الابد ايها الشحاذ المحسن . غدًا ينكشف امرك . فينكرك المحسنون الحقيقيون . وينكرك كذلك الشحاذون . اجل سادتي ان كان ثوبي مرقعاً . او عقيدتي مرقعة . لا بد ان تأتي ساعة انسى فيها نفسي . فيزول انتباهي . فتبدو ذلتي .

من أسر على سريرة البسه الله رداءها . فهل تظن ياصديقي انك تستطيع ان تستر ترقيع حبك الى الابد . اتظن ايها المحترم « المتجزوت » ان رقاع دينك تخفى على الله ؟ اتظن ياصاحب السعادة والتجلة والكرامة انك تستطيع ان تستر رقاع سياستك طول حياتك ؟ ألا تظنون ياأسيادي ان النفس تشعر بهذا العار الذي نلحقه بها حباً بدنيانا . حباً بكل زائل تافه في الحياة . حباً بالمال او بالشهرة او بالسيادة او بالوجاهة الفارغة ؟ نعم ان ساعة يكشف الله فيها عما في ثوب نفسنا من رقاع الجبن والذل والكذب من رقاع التمويه والرياء والنفاق لاشد الساعات ويلاً . فنود لو كنا عراة من ان نقف في نور الحقيقة باطمار مرقعة .

ان بليتنا ياأصحابي ليست من الاكليروس فقط بل من اصحاب الوجاهة فينا ايضاً — من ذوات لبنان اصحاب التجلة

والكرامة ٠ فهم لا يتقدمون ولا يفسحون لغيرهم فيتقدم ٠ هم لا يعملون عملاً واحداً مجرداً من اجل الوطن ٠ ولا يدعون غيرهم ان يعمل مقدار ذرة ٠ هم واقفون في وجه الشعب ولم يزالوا يفسدون في كرمه الجديد ٠ لم يزالوا يتداخلون في شوءون الحكومة ٠ ويحاولون الضغط على المأمورين ٠

مشايخ القرى وقسوس القرى واغنياء البلاد ٠ احبسوا خمسة او ستة منهم بدل ان تحبسوا المجرمين الصغار فتستحقون اذ ذاك شكر الامة ٠ اغنياء الجبل امنعوهم من التدخل في شوءون الحكومة فنشعر حالاً بتحسين في حالنا ٠ يزول اذ ذاك الكابوس عن صدرنا ٠ نتنفس اذ ذاك الصعداء ٠ قد حان لنا ان نقلع عن الترقيع ونقدم ولو على عمل واحد كبير ٠ واذا كنا لا نستطيع نبذ اطمارنا المرقعة لننزع منها الرقاع في الاقل ٠ دعونا نقف يوماً واحداً امام الله في حقيقة حالنا لا في حال التمويه والادعاء والوهم والخداع ٠

ان لبنان في الدور الماضي كان احسن في نظري مما هو اليوم لان حالته وان كانت سيئة كانت حقيقية ٠ كان واقفاً امام الله والناس بخلق اطماره ٠ كنا نعرف عبيد بكركي من عبيد الحكومة ٠ كنا نعرف الرجل الحر الصادق اذا شاهدناه بين الالوف من الناس ٠ ومن اين لنا ان نعرفه اليوم وبياع البصل اصبح من الاحرار فصار يجتمع وسيده الامير في ناد واحد ؟

لا ياسيدي عبثاً ترقعون اطمار شيخنا المسكين • وعبثاً تدهنون رجله المشلولة بزيت الجمعيات • فان هذا الزيت الذي نفاخر به اليوم لا يفرق كثيراً عن زيت مـار دومط • والحق يقال ان الجمعيات في البلاد لا تستطيع ان تعمل عملاً كبيراً مفيداً الا اذا اتحدت كلها تحت رئاسة رجل واحد • وعملت كلها ولو شهراً واحداً كما قلت لغرض وطني واحد • فالنهضة الوطنية وان كان وراءها مال البلاد كله • وخيرة رجال الوطن كلهم • لا تصل الى غايتها • ولا تفلح بمسعاها • ان لم يكن لها زعيم عظيم • ان لم يكن في طليعة ابطالها قائد قوي • تقي • ذو بصيرة وجرأة • وضمير واقدام •



روح الثورة [1]

ايها السادة والسيدات ٠

كنت منذ اسبوعين في الكوره فتحققت ما طالما سمعناه بطرق الانتخابات في لبنان وبالاخص في ذالك القضاء ٠ حدثت الوجيه هناك والكاهن والفلاح فادهشني من الكل جهرهم بما هم فيه من المفاسد السياسية جهراً لا يقيده ادب ولا حياء ٠

يرشون ويرتشون ولا يخشون امراً ٠ بل يفاخر الفريق منهم ان زعيمهم يبذل الاموال الطائلة في سبيل انتخابه ويضربون الامثال تزكية واستبراء ٠ وما سمعنا قبل اليوم بقوم يقترفون المآثم المدنية ويبرئون انفسهم بالامثال السائرة ٠ حدثت كاهناً في احدى القرى فقال مجيزاً اعمال المرشحين « اللي بدو يعمل جمال لازم يعلي باب داره » وحدثت فلاحاً فقال مدافعاً عن صاحبه : « زعيمنا رجل الشعب ٠ ومحبوب من الشعب ٠ زعيمنا عدو المشايخ » ٠

فقلت : « ولكني سمعت ان بلغ من امر زعيمكم انه

---

(١) خطبة القيت في حفلة جمعية تهذيب الشبيبة ببيروت في ١٧ ايار (مايو) سنة ١٩١٣

اشترى المندوب من الشعب بخمسين ليرة »

— واكثر يا سيدي

— وانه بذل ثلاثة الاف ليرة في انتخابه

— واكثر يا سيدي

— وقد قلت لي ان الشعب يحبه كثيراً وينصره .

— هذا موءكد يا سيدي

— فيا للعجب اذا كان الشعب يحبه وينصره وقد كلفه الى بذل ثلاثة الآف ليرة . فكم يضطر المرشح المسكين ان يبذل من المال يا ترى لو كان الشعب يبغضه ويناهضه ؟

— أوه شيء كثير . شيء كثير

قال هذا وهو يلف سيكارته ولم يبال بما قال . كأن الرشوة عنده مثل فلاحة الارض امر لازم لا بد منه .

ثم سألته قائلاً : ألا تعلم يا رجل ان الرشوة ذنب قصاصه الحبس ؟

فاجاب الفلاح الذكي : « على راسي ياسيدي . ولكن فرجيني الحبس بالاول والحكومة اللي بتقدر تحبسني »

فقلت في نفسي كأن هذا الفلاح قرأ السياسة على استاذ اوروبي . الحق للقوة . ان كان في برلين او في الكوره . ولئن احزنني استهتاره وتحجر ضميره . فقد سرني منه طعنه الحكومة اللبنانية هذه الطعنة النجلاء . ولم اتمالك ان سألته سوءالاً اخر .

وكان قد عمد الى محراسه ليستأنف عمله . فقلت : اذا كنت لاتنصر زعيمك الذي تحبه كثيراً الا اذا رشاك فما الفضل في حبك ؟

فاجاب على الفور : « هذا كلام يا سيدي . لما بيصير في فلوس ما بيعود في حب »

وكبس على السكة برجله . ووكز الفدان بمساسه — ترّح هُهْ ! وعاد الى فلاحة ارضه .

ايتها الارض المباركة ! ليت قلوب ابنائك كقلبك حية محيية . وليت ضمائر ابنائك كضميرك الذي لم يزل والحمد لله طيباً متنبهاً متيقظاً . نعطيه الحبة فيعيدها الينا عشرين حبة وخمسين .

ولكن في الكوره فضيلة جميلة غير فضيلة الارض لاينبغي ان اغفل ذكرها : الكوره . على ما فيها من جهل وطغي وفساد . ترفع اليوم علم التعليم الوطني الحر في لبنان . هنالك الى جنب المفسدات السياسية عثرت على شيء من دواء امراضنا الاجتماعية والادبية . اذا أُحسن استعماله كان الدواء الشافي لها كلها . عرجت في عودتي على انفه وزرت تلك الزاوية الصغيرة المقدسة فيها . القائمة فوق الصخور . على شاطىء البحر . حيث ترزع اليوم آمال الامة في الناشئة الجديدة . هناك حسنة من حسنات التعليم لم ارَ مثلها في لبنان . مدرسة لا طائفية ولا اكليريكية ولا اجنبية . مدرسة وطنية صغيرة في ظاهرها . كبيرة في مقاصدها . يؤمها البنات والصبيان من سائر الطوائف والملل

ويتلقنون فيها تحت سقف واحد مبادىء الاخاء الحقيقي. والعلم الصحيح . والحرية الصافية . وحب الوطن المقدس . يتشربون فيها روح الالفة وروح المعرفة معاً .

لست يا سادتي بماسوني . ولكن مدرسة صديقي جبران المكاري . وان كنت لا استحسن بعض الجزئيات في طرق التعليم فيها . انما هي من طلائع الكلية اللادينية الوطنية الحرة التي ننشدها . والتي يتوقف عليها وعلى امثالها احياء المبادىء الشريفة في هذه الامة . بل احياء روحها الوطنية المائتة . وبعث ما دفن من امالنا . نحن الاحياء القلائل . نحن ابنائها المبشرين ببعث مجدها . المرشدين الى سبل الهداية فيها .

هنالك فوق تلك الصخور على شاطىء البحر شاهدت طلائع ثورة في التعليم نبهتني الى موضوعي الليلة . ولا غرو . فنحن في زمن ثوراته اكبر ما فيه . وان لم يمسنا الله اليوم بغير الضر منها فذلك لان اولياء الامر فينا لم يدركوا من مبادئها غير القشور . وان في لبها اذا ظفرنا به لمنافع جمة وخيراً عميماً . لذلك اتخذت « روح الثورة » موضوعاً احدثكم به الليلة علنا نخترق القشور فنغذي بلب الحقائق عقولاً أوهنتها الترهات . ونقوّي بها انفساً اقعدها الجهل والخمول .

. . . . .

ايها السادة والسيدات

من فضائل اجدادنا ارباب النبابيت ما يعدُّ اليوم رذيلة • ومن وحوش الماضي الهائـلة لم يبق غير هياكل في متاحف العلم والتاريخ • ومن مواعين الاسلاف اصحاب الاثافة ما لا يصلح اليوم لبيت الفلاح • ومن اديان الاقدمين الالهية والحيوانية لم يبق غير المتهدم من انصابها والطامس من رموزها ورسومها • ان آلهة الانسان لمثل مواعينه لا تصلح مدى الدهر • نشعل النار يوماً امامها • ويوماً تحتها • ويوماً فيها • نقـدم المحرقات اليوم • ونحرق المعبودات غداً • الثابت في الحياة ثابت الى حين • واما الانقلاب فثابت الى الابد • اجل ان يداً سرية علوية تعمل ابداً في الامور وفي الاشياء فتحولها وتغيرها وتبدل منها • التطوُّر سنة الحياة في الجزئيات منها والكليات • في العلوم وفي الاديان • في السياسة وفي الامم • في الطبيعة وفي الناس • خذ شيئاً واحداً من اشياء الاقدمين وقابله بما نشأ منه وقـام اليوم مقامه فتـكاد تجهل الاصل. وتدهشك درجات التحسين فيه والارتقاء • وقفتُ مرة في احد المتاحف الاوربية امام معرض من السلاح • فرأيت ادوات الحرب والقتال كلها مصفوفة بحسب تاريخها ورقيها • اولها النبوت الشوكي الذي قطع من الغاب لقتل وحوشها • وآخرها البارودة الحديثة التي يطلق بها عشرين مرة في الدقيقة • وقـد اخترعها الانسان لقتل الانسان • فقلت في نفسي : وفي المستقبل

عسى البارودة هذه مثل نبوت الاولين اثرًا من الآثار . بيتها المتحف وبارودها الصدأ .

ولا شك عندي اننا وان كنا ابتدأنا بالنبوت الشوكي وتدرجنا منه الى الغوّاصات والطيارات الحربية سنتدرج ايضاً الى الحجة والبرهان . الى التشريع والسلم العام . ولكن الانقلابات في زمن السلم اعظم منها في زمن الحرب . وروح الثورة حية ثابتة ابدًا . روح الثورة كائنة في كل الامم وفي كل الاماكن وفي كل الازمنة . وهي في الناس وفي الطبيعة عاملة دائماً . اما خفية واما ظاهرة . اما هادئة واما هائجة . اما بانية واما هادمة .

الثورة [١] يد الانقلاب . وناموس النشوء والارتقاء روح الثورة . ولهذا الناموس الالهي مظاهر قد تستغرب لتنوعها فيه. فهو عامل في الناس وفي الاشياء على السواء . في كل مكان وزمان . ولكن ردّ الفعل فيه يختلف ونتائجه تتنوع . المياه كلها واحدة اصلاً . السحاب يسخن فيذوب فيسقط على الارض ماء طهورًا . ولكن مجاري المياه تختلف باختلاف التربة التي تسقط فيها . فيجري منها الحار والفاتر والبارد . ويجري منها المالح والمعدني والقراح . فالعوامل التي تعمل خفية في الاشياء

---

(١) اريد بالثورة معناها التاريخي الاجتماعي . ولا بد في مثل هذه المباحث من التوسع بما يجيء في كتب اللغة من التعريفات .

قلما يراها الانسان . ولكنه يشاهد نتائجها التي تظهر في الاحايين فجأة فيكبرها ويدعوها ثورة وانقلاباً . وما الثورة الا سلسلة من حوادث خفية تتجسم في مظهر من مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية . الثورة شجرة جذوعها اعظم من فروعها وتربتها اقدم من سمائها . الثورة حادث خطير خمسه الاخير يظهر للعيان واخماسه الاخرى خفية سرية . الثورة كلمة الله مجسدة في الاشياء . تجعل الجماد حياً . والحي ناراً . والنار نوراً . والنور حقاً وعدلاً ورقياً وسلاماً .

كان الحديد جماداً فصار في الكور حياً . وساعة يدخل النار يبتدئ فيه تاريخ الثورة الطبيعي . وساعة يضعه الحداد على السندان ويرفع فوقه المطرقة يبتدئ فيه تاريخها العملي . فنراه بعدها حربة . او مدفعاً . او معولاً . او سنداناً . و كذلك الحجارة التي تصير كلساً . والكلس الذي يصير طيناً . والطين الذي يصير جدراناً . والجدران التي تصير سجناً . والسجن الذي يصير عاملاً حسياً بين الطبيعة والانسان . كيف لا وهو الحلقة الاخيرة من سلسلة الثورة الطبيعية . والفصل الاول من تاريخ الثورة المدنية . وقس على ذلك في حوادث الاجتماع وفي مظاهر الطبيعة والاكوان .

ان الزلزال اقرب نتيجة الينا من نتائج عناصر تحت الارض ثائرة بعضها على بعض . وان تفجر البراكين وتساقط

الشهب وفيضان الانهار نتائج ظاهرة حسية لسلسلة حوادث بعيدة الاسباب خفية . ولا اظن حادثاً واحداً اجتماعياً او طبيعياً أثر في تاريخ الامم او تاريخ الارض تأثيراً كبيراً وكان منفرداً في مفعولاته وعوامله عن بقية الحوادث او منفصلاً عن السابق واللاحق من مجاري النواميس الكلية الشاملة . في تاريخ الارض مثلاً ازمان بائدة تعرف بازمنة الحجر والجليد والنحاس وغيرها . يفصل بعضها عن بعض حادث في الطبيعة خطير . ولكنه لا يفصلها على ما اظن تمام الانفصال . واني لأجسر ان اقول . وان كنت قصير الباع في هذا العلم . ان حوادث هذه الازمنة سلسلة بعض حلقاتها خفية لا مفقودة . وقد اخفاها الحادث العظيم كما تخفي المرجانة في السلك مكانها . وقد يكون الحادث الخطير همزة وصل محيية لا همزة قطع مهلكة . فيحمل بذور الحياة من زمن الى زمن . وينقل مبادىء الرقي من جيل الى جيل .

وان ناموساً كلياً ازلياً يغير في ماهية الحوادث الى حد محدود ولا يتغير قطعاً . تتفجر البراكين فتقذف بحممها خارجاً فتغير تربة الارض حولها . وقد تغير شكلها ايضاً فتجعل السهول جبالاً والجبال سهولاً . ولكنها تقف عند هذا الحد ولا تتعداه . فلا تستطيع ان تجعل البحر ارضاً او الارض ماء . والطوفان كالبركان لا يخرج عن ناموسه ولا يتعداه . فالمياه اذا طمت هدمت ودمرت . فتستحيل الارض بحراً الى حين . وقد تتغير تربتها

وعمرانها . ولكن مركزها تحت الشمس لا يتغير .

والذي يصح في تاريخ الارض والكائنات يصح في تاريخ الامم والحكومات . فللثورة ناموس . وللناموس طريق. وللطريق منصات فيها عرائس تحمل شموعاً يوقدها الله للناس وهي شموع الزعامة والهدى . والزعامة بدونها صوت ولا عين . وسيف ولا يد . والزعيم الكبير الصادق من سار الى غرضه في نور تلك المنصات. فيحق ان يدعى اذ ذاك زعيم الناس ولا يجوز ان يدعى زعيم الثورة. ذلك لان الثورة سنة والزعماء مسوقون بها عاملون لها . حاملون بنودها . مستمدون من انوارها . كل على قدر طاقته . واذا استطاع اكبر تمساح في النهر ان يوقف سيره او يغير مجراه . واذا استطاعت النسور ان تسد فوهة البركان او تخمد ناره . يستطيع الزعماء في الثورة التأثير على ناموسها الذي هو روحها الحية الالهية الازلية .

في الامس خطب اللورد مورلي في مجمع المؤرخين الذي التأم بلندرا — واللورد مورلي من نوادر ارباب السياسة والادب والفكر في العالم اليوم — فقال ان للبداهة في السياسة تأثيراً كبيراً في تاريخ الامم . اي ان رجلاً عظيماً . في كلمة يرتجلها او في عمل يعمله بداهة وعفو القريحة . يغير مجرى الحوادث التاريخية المهمة . قد يصح هذا في فروع الحوادث لا في اصولها . مَن مِن الزعماء كان اعظم في الارتجال من ميرابو ؟

ومَن مِن ارباب السياسة كان في البداهة والاقدام اعظم من بزمرك ؟ اما ميرابو فلو شاء ايقاف الثورة او تحويل مجراها لما استطاع الى ذلك سبيلاً . ولو خدم بزمرك غير الوحدة الالمانية لما كان فيها سرياً عبقرياً . لو عمر ميرابو لاستطاع في الاكثر تلطيف فظائع الثورة الافرنسية . ولو مات بزمرك قبل ان يتمم عمله لتممه بعده سواه . في الحياة ناموس يعلو به النوابغ . ولكنهم لا يعلون عليه . وان شجاعة الرجال . وفصاحة الزعماء . وبداهة السياسيين . تؤثر بظواهر الحوادث لا بجوهرها . وعندنا من تاريخ الدولة العثمانية برهان على ذلك قريب . هذه الثورة الاخيرة—وقد تسمونها دسيسة اسقطت الوزارة الكاملية واودت بحياة احد زعمائها . فهل غيرت شجاعة انور واصحابه شيئاً من جواهر الامور ؟ هل عززت شأن الجند ؟ هل صانت شرف الامة ؟ هل فازت برد غارات العدو ؟ هل خلصت ادرنه ؟ هل ظفرت في الاقل بصلح شروطه احسن للدولة من الشروط التي عرضت على الوزارة السابقة ؟ ولو نهض صباح الدين وانصاره غداً ودكوا الوزارة الحاضرة دكاً أيتغير يا ترى من روح الحركة الفكرية الثورية شيء جوهري ؟ لا لعمري ! ولو وفق العثمانيون الى اكبر زعيم في العالم لما استطاع اليوم رد الطوفان . ولما استطاع اليوم سد فوهة البركان .

. . . . .

بعد هذه الاشارة الخصوصية التي ساقني البحث اليها اعود الى عموميات الموضوع . قلت ان للثورة ناموساً ثابتاً في كل الامم وفي كل الازمنة . عوامله اكثرها خفية وبالاخص في اوقات السلم . ولا تنحصر هذه العوامل في الحكومة وفي السياسة فقط . بل هي حية محيية في كل دائرة من دوائر الحياة . بل في كل نفس بشرية راقية. ففي كل امرىء تحدث ثورات منه وعليه في ساعات من الحياة بوادهها اجمل ما فيها . فتلجّ في النفس اصوات ترعزع فيها المألوف . وتنزع منها شكيمة العادات . فتنقلها من فكر الى فكر . ومن حال الى حال . وهذا قسم من الحقيقة في سنة التطور . لان الثورة لا تنحصر في الرجال بل نراها عاملة حتى في الاطفال . فالطفل الجائع يثور على امه عند ما تمسك عنه اللبن . حتى اذا اصاخت الام لصراخه واجابت طلبته يستحيل الجوع فيه شبعاً . والصراخ غناء . هذه ثورة الطفل الطبيعية وقد كللها النصر . اما اذا تغلبت شهوته على حكمة امه فتثور عليه معدته فيدعى الطبيب اي الاجنبي لينظر في امره . وهذه ثورة اخرى طبيعية . سببها التفريط ونتيجتها التورط والفشل .

وما يصح في الاطفال من هذا القبيل يصح في الرجال . على ان الطبيعة امنا لا ترحمنا ولا ترثي لحالنا . ولا تتساهل بتنفيذ شرائعها فينا . ان بثوراً تظهر في جسم الانسان لدليل ثورة في دمه . فقد حمل الدم ما لا يستطيع حمله فرفضه ثائراً فظهرت آثار

الثورة في جلد صاحبه . وما يصح في المادة يصح في النفس . توبة الجاني ثورة في نفسه كللت بالفوز . الانتحار نتيجة ثورة في قلب المرء افسد اليأس قصدها وغير الفشل نتيجتها . الراهب اذا تزوج فالثورة فيه على نذوره . والخليع اذا ترهب فالثورة فيه على شهواته . والنفس الاثيمة اذا ارتدعت واهتدت فالثورة فيها على الشر والضلال . واذا تسامت فالثورة فيها على الخسة والسفالة والجهالة . وقس على ذلك في كل اطوار النفس وتقلباتها ارتقاء وانحطاطاً .

قلت ان روح الثورة حية عاملة في دوائر الحياة كلها . وفي كل فترة من الزمن تتجسم نتائجها فيبصرها الناس ويدركونها . خذ التجارة مثلاً . ان طرائقها واساليبها وادواتها اليوم غيرها منذ مئة سنة . وفروعها الجديدة المتعددة لم تخطر للفينيقيين ولا من سبقهم من التجار في بال . تدخل بيت شركة من الشركات في اوروبا او في اميركا اليوم فلا تجد فيه غير المكاتب والدفاتر والآلات الكاتبة والاوراق وبينها واليها مئات من الشبان والبنات واقفين وجالسين يكتبون ويحسبون . فتظن نفسك في دائرة من دوائر الحكومة . فتسأل : ما هي تجارة هذه الشركة . فيقال لك ان لا تجارة لها . وبعد ان تطلع على حقيقتها يدهشك امرها وتستغرب ماهيتها . فتقول في نفسك : وكيف يمكنها ان تدفع رواتب عمالها الكثيرين وهي مؤسسة لفحص دفاتر التجار او

لتقدير ارباحهم • او لنشر الاعلانات • او لمطالعة الجرائد فتقص منها ما يهم عملاءها من الاخبار • وهنالك ابواب اخرى عديدة للارتزاق ما حلم بها الانس في الماضي ولا الجن • وهذا التفريع والتخصيص في العمل انما هو نتيجة ثورات سلمية في طرائق التجارة القديمة • واننا لنشاهد اكبر مظاهرها في الولايات المتحدة• هنالك عند اشرافنا على نيويورك نرى اعلام الثورة قائمة امامنا مجسمة في تلك الصروح الشامخة وان ثورة الاميركيين على الهندسة المعروفة في فن البناء القديم لمن اظهر ثورات السلم والتجارة •

ولا اخص الامة الاميركية بكل ما نشاهده اليوم من ادلة الانقلاب ومظاهره الخطيرة . نحن في زمن عظمت فيه اعمال العقل كما عظم البناء عند الاقدمين . ففي مدنية الغرب اشكال معنوية وحسية من ضخامة الاهرام وغرابتها . هذه ابنية الاميركان وقد فاقت قلل الجبال علوًا . وهذه اختراعات العلماء واكتشافاتهم ملأت اعلامها الارض بحرًا وبرًا وجوًا . فاين منها الاهرام وابو الهول واين منها هياكل المصريين ومعاهد الرومان ؟ ايفاخرنا الماضي بقبور ابطاله وبما تجسم من مجد ملوكه وخرافات كهانه ؟ هذه معاهد العلوم ومجد اربابها مجدها . وهذه صروح للملوك الثروة ومعاهد الخير والاحسان تشفع بهم وبها . بل هذه مساعي ابطال العلم والعمل — ان آثارهم تدل عليهم. واننا لنراها اليوم في الشرق وفي الغرب . في اقاليم الارض كلها وفي قطبيها . في

صحاري الجنوب وفي ثلوج الشمال . في السهول قائمة وفي الجبال . في البحار ماخرة وفي الانهار . فوق المياه تعج وتحتها . في الاثير تضج وفي الفضاء . تحت المعادن تهدر وفوق السحاب . وهي كلها من فضائل الثورة العظيمة ثورة السلم والعلم . ثورة الفكر والعمل .

اجل سادتي ان مساعي الانسان في هذا الزمان عقمت أو أثمرت لجسيمة كلها عظيمة . بل هي كلها ثوروية . ومثلما تكثر فيها اسباب الرقي والمجد والسعادة تتعدد فيها اسباب البؤس ايضاً والفقر والشقاء . جئني من الماضي بحسنة اريك من مثلها في الحاضر حسنات . جئني بسيئة اعدد من شكلها سيئات . البؤس عندنا مثل النعيم كلاهما جسيم . والخير مثل الشر كلاهما عظيم . والقبيح في هذه الحياة المادية الجديدة مثل الجميل تتصل اسبابه بمساعي الانسان العقلية المحضة . فيفسد الطمع نتائجها . وتشوه الانانية جمال مقاصدها . على ان ذلك لا يدعو الى اليأس عند من يفكر في الامور ويطلع على شيء من تاريخ الثورة الاجتماعية السلمية . ثورة العلم والعمل في المغرب . فان هي الا حديثة النشأة كثيرة المحن . وان ما تضمره لنا الايام من فوائدها لاضعاف ما نشاهده منها اليوم . ولو لم تكن روح الثورة اي سنة التطور حية في هذه الحياة ثابتة دائمة لما قبل الحكيم مدنية الغرب واكبرها . كيف لا ولم تزل العبودية فيها

آثار ظاهرة واشراك مهلكة . وفيها في احياء البؤساء ظلمات لا تولد غير المنكرات . كيف لا وفقر اليوم عبودية لا تقاس بعبودية الماضي . والعبد الراضي بسوء حاله غير العبد المدرك لبؤسه المتمرد على اسياده . المطالب بما لغيره من وسائل العيش والرقي والسعادة . وهذه من حسنات مدنيتنا التي تنبه كل من عاش في ظلها ونورها وتستنهضه ليطالب في الاقل بما له من الحقوق المدنية والطبيعية . نعم ان روح الثورة فيها لا تقعد . وعينها لا تنام . وعقلها لا يقف . ويدها لا تكل ابداً .

أما الثورة السياسية فلي كلمة وجيزة في طرق الفوز والفشل فيها . من استقرى التاريخ يعلم ان الثورة الحقيقية . العظيمة نتائجها . العميم خيرها . انما تبدأ فكراً وشعوراً . ولا يبقى من آثارها بعد ان تحدث فعلاً الا ما كان منطبقاً على ما نضج في الانفس والعقول . بل لا ينمو من بذورها الا ما وافق التربة التي تزرع فيها . مثال ذلك الجمهوريات في مدن ايطاليا في الاعصر الغابرة كجمهوريتي فلورنسا والبندقية . وحكومة كروميل في انكلترا . وعروش نابوليون في اوروبا . فانها لم تدم طويلاً . عززها السيف حقباً من الزمن . ثم قلبتها الفوضى . وابادتها التقاليد الوطنية . وقد يكون نصيب جمهورية الصين اليوم نصيب تلك الحكومات القصيرة الاجل . فالثورة الحقيقية ذات النتائج الثابتة انما هي بنت التعاليم السديدة والمبادىء

السامية لا بنت المدافع والحراب . على ان السلاح يعززها عند نشأتها . اذا جرد السيف في سبيلها من كان عارفاً ماهيتها . مدركاً بعض اسرارها . محترماً ناموسها . مستأصلاً من التقاليد والخزعبلات ما يعترض سيرها ونجاحها .

فالانقلاب الادبي الذي يحدث اولاً في النفس ثم يتدرج منها الى البيت . فمعاهد العلم . فدوائر الاجتماع . يولد ثورة نحتاج فيها اليوم الى سلاح يؤيدها ويعززها . والا عدنا الى ما كنا فيه . ان انقلاباً في الاخلاق والعقول . وفي طرائق التعليم والتربية . وفي دوائر الادب والاجتماع . ليحدث الثورة الصالحة التي لا يتبعها ردُّ فعل خبيث . ولا تأتي الا بالاصلاح الثابت الناضج المفيد .

ولكن هذا الاصلاح لا يتم بلا انقلاب في الاحكام . ولا يتم انقلاب بلا ثورة سياسية . ولا تنجح الثورة السياسية بلا ضحية . ولا تصح الضحية ان لم يكن صاحبها عالماً باهمية ما هو فاعل . ثابتاً بما يؤمن . مدركاً شيئاً من المذهب السياسي الاجتماعي الذي ينبغي ان ينصره بلسانه ويده . وبماله ودمه . تيقنوا هذا : ان المفاداة بالنفس لا بدَّ منها في تأسيس الاديان او في نشر المذاهب الاجتماعية . او في تأييد الحقائق العلمية . او في تعزيز النهضات السياسية . ان في دم الشهيد مكروب الثورة . ولكنه لا ينتشر الا اذا كانت الاجسام مستعدة له . ولا تكون كذلك

الا بعد ان تظهر فيها آثار الثورة الداخلية الحادثة . وهذه كما قلت تظهر في حينها ولا يمكننا ان نعجل حدوثها او نؤجله — وقد تنمو الثورة السياسية في فساد الماضي والحاضر كما ينمو النبات في الاقذار . والاستشهاد في سبيلها يزيد بنموها لا بنمو ثمارها .

اما روح الثورة فهي واحدة في الامم المتمدنة . لكن اساليبها تختلف باختلاف طبائع الامم . وقد تتنوع ادواتها بحسب تقاليدهم وعاداتهم . ففي اميركا مثلاً تعمل الثورة اليوم بالفأس والمعول . وفي فرنسا بالريشة والقلم . وفي انكلترا بالقياس والميزان . وفي المانيا بالمجهر . وفي ايطاليا بالخنجر . وفي روسيا بالديناميت . اما في الشرق فالثورة لم تهتد بعد الى ادوات العمل ولم تحسن استخدام واحدة مما ذكرت . جربنا الريشة والقلم فكنا فيهما مقلدين . جربنا القيـاس والميزان فكنا فيهما عابثين . لجأنا في الاستانة وفي مصر الى الرصاص . وفي الهنـد الى الديناميت . فكنا فيهما مجرمين . جربنا الثورة السلمية فكنا مخطئين . جربنا السيف والمدافع فكنا فيهما ضالين مضلين . والحق يقال ان سلاح الثورة عندنا لم يصقل بعد ولم يطهر .

ولا يفوتنكم ان البادئ بالثورة السياسية يكون غالباً اما فريستها واما تاجرها . وقد يكون تاجرها وفريستها معاً . يأكل من مالها ثم تأكله . وقد يذهب ضحية على مذبحها . فيكون « كالتربيل » الذي يرميه الصياد في البحر فيدفـع السمك الى

سطحه فيصطاده اذ ذاك قوم اشبه بالصيادين منهم بالزعماء .

الزعماء ! عممت في ما قلته فيهم فاخصص. ان الهيئة الاجتماعية كالجبل : الخيرات عند قدميـه ، والصحة في وسطه . والمحل في رأسه . في اسفل الهيئة الاجتماعية الجهل في العمل والذل . وفي وسطها شيء من التهذيب والدهاء . وفي رأسها السيادة والاثرة . يستثمر القاعدون عند اسفل الجبل الارض فيبعثون بالغلة مـا خلا اجورهم الى من في رأسه . فيأخذ من في وسطه قسماً منها اقـاء دفاعهم عن حقوق الانسان كما يزعمون . وفي ايام الثورة السياسية يكثر في هذه الطبقة الزعماء الادعياء طلاب السيادة والمال . فيهضمون حقوقاً يزعمون انهم يدافعون عنها . ويسلبون من تحتهم ومن فوقهم . ويتآمرون مـع السادة اصحاب النفوذ الخبيث فيتبوأون مجالسهم . مجالس الظلم والاستبداد والاثم والفساد. ويسكتونهم بشيء مما يكسبون . وفي مضايق الخداع والنفاق يتقاسمون ما يغنمون . هؤلاء الزعماء . وقد امسوا في قمة السيادة . يصدرون اوامر هي كالصخور التي يدحرجها الصبيان من اعالي الجبال . فتحطم الاشجار في طريقها . وتسحق الازهار . وتدمر ما غرسه الانسان وتهدم ما بناه .

يدمرون ويفسدون . ومن فسادهم يكسبون . فهم تجار لا زعماء . يتاجرون بالسياسة وبالحرب وبالدستور . يتاجرون بادوات الجنـد ومعداته . برتبه وجهالته ودينه وكسائه . وبخبز يومه .

يتاجرون بآمال الامة واملاكها . يتاجرون بويلاتها وولاياتها .
يتاجرون بدمها ودموعها . يتاجرون باقدس الاشياء لديها . عفواً
سادتي فقد احسنت اليهم في ما قلت . فلو احسنوا التجارة في
الاقل لانتفعت الامة بعض النفع بتجارتهم . ولكن دأبهم ان
ينهبوا ويبيعوا ويخزنوا وكلٌّ في قلبه يقول : بعدي الطوفان .

أيستغرب الفشل في ثورتنا . والانخذال في حزبنا اليوم .
وهؤلاء السفهاء الاغمار زعماء الامة ؟ ربي اتهلكنا بما فعل السفهاء
منا ؟ او تتبع الظلمة أمةٌ خرجت منها . تتلمس الى باب النور
طريقها ؟ لا لعمري فانها وان فسدت في ايادي الطغاة المفسدين لا
تلبث ان تنتقل الى من يصلحها من المصلحين الصالحين . فيعززونها
فتعززهم . ثم يشعلون منها مصباحاً نيراً صافياً في الامم .

فانها اذا وقفت هناك وجدت من يأخذ بيدها ويهديها سواء
السبيل . هناك طائفة الادباء الحقيقيين العاملين بجد واخلاص في
سبيل الرقي والعدل والحرية . وفي سبيل العلم والحكمة والجمال .
فعليهم وحدهم يتوقف تحرير الانسان . واعلموا ان الانسان لا
يتحرر تحرراً حقيقياً تاماً اذا لم تشرب روحه الشوروية روح المعرفة
والشعر والحكمة . وان الادباء الحقيقيين من شعراء وفلاسفة —
اصحاب الفنون الجميلة وارباب العلم والحكمة — لا ينتمون
الا الى حزب واحد في العالم هو حزب الحق والحرية والحقيقة
والجمال . ولا يكبرون ويجلون الا فئة قليلة من الناس . روّاد

المدنية الجديدة. دعاة الثورة السلمية الاجتماعية. المهذبين المعززين. المرشدين المعزين. ارباب الفنون الصادقين. النوابغ الهادين. هؤلاء نجلهم ونكبرهم. ولا نجل من الناس سواهم. ولا يهمنا من الطوائف والملل غير المتساهلة الراقية منها. تلك التي يقف رؤساؤها عند واجباتهم فلا يتعدونها. ويزرعون في قلوب الناس حب الحرية الادبية والروحية قبل كل شيء. ولا يناهضون روح الثورة اي سنة الارتقاء المقدسة. وانما يهمنا ويهم كل ذي شعور حي شريف ان ينتصر الهدى على الضلال. وان تكلل الحقيقة في الفنون والجمال. يهمنا ان تتعزز الحرية الشخصية في كل مكان. يهمنا ان يتمتع بحق المساواة تجاه الاحكام كل من بني الانسان. نهتم لما كان سديداً من التعاليم. سليماً من العقائد. سامياً من الآراء.

اجل ان التعاليم السديدة السامية لا تفسد احداً من البشر. وهي لا تفسد مدى الدهر. وان روح الثورة التي تتغذى دائماً بها لا تخمد ولا تضمحل. وانما لها هجمات ولها يقظات. ومتى انار الله مصباحها في دوائر الادب والدين والسياسة. وشعرت الامة شعوراً حقيقياً صافياً ان العدل اساس الملك. وان العمل به واجب مقدس. وان طلب الحقيقة وحب الجمال في الحقيقة ضرورة من ضرورات حياتها. وان الحرية نور يومها والشجاعة هواؤه وسماؤه — متى اصبحت الامة تدرك هذه الجوهريات. وتجد في طلبها وتسعى لتحقيقها. بشِّرها بفوز مبين في مضمار الرقي والمجد والعمران.

الاخلاق [١]

وانما الامم الاخلاق ما بقيت
فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا
« شوقي »

ايها السادة والسيدات

لم يخلق الانسان اميرًا ولا كاهناً ولا سلطاناً . وما خلق بوذياً ولا مجوسياً ولا مسيحياً ولا مسلماً . انما هي الشرائع تسترق والاديان تفرق . اما السيادة فللعقل . واما التفاضل فبالمـآثر والمبرات . اجل ولا ينبغي ان يرفع امرؤ على آخر ويفضل بغير عقله ونفسه وادبه واخلاقه . كل منا خص بلقب من خالقه اشرف من ألقاب الملوك والسلاطين . ألا هو لقب « انسان » . ولـكل منا حقوق طبيعية متساوية ملازمة غير متعدية لا يستحق ان يدعى بشرًا من ينام عنها او بغضي على امتهانها . ولـكل منـا حقوق سياسية اجتماعية تنشأ في حياتنا المدنية ومنها . عار علينا ان نسكت عمن يهتضمها من اولي الرئاسة والامارة .

«وأرى ملوكاً لا تحوط رعية   فعلامَ تؤخذ جزية ومكوس ؟»

(١) القي هذا الخطاب في الكلية الاميركية ببيروت عام ١٩١٢

ولكل منا حقوق ادبية نفسية ليس فوقها غير سنة الله السائدة في الاكوان والاشياء لا نخضع فيها لسواها - لسنة الله التي تنير في الانسان الضمير كما تنير في السماء الكواكب والنجوم. لسنة الله التي تقرن نور الشمس بنور اليراعة . وقوس القزح بالوان الطاووس . وزئير الاسد بصوت النبي . وتغريد البلابل بقوافي الشعراء . فحقوقنا الادبيـة النفسية التي لا نخضع فيها لغير سنة الله انما هي برهاننا على وجود الله ولا حق اثبت منها واعلى . قد ألقى في السجن فاحرم حقوقي المدنية . وقد احرم قوتي واسام العذاب فتمتهن حقوقي الطبيعية . ولكن السجن والجوع والعذاب لا تذهب بذرة من حقوقي الادبية الروحية . انك اذا استطعت حبس نور الشمس . او ايقاف ريح السموم . او تقييد امواج البحار . لتستطيع سلب حق من حقوق اخيك النفسية . ولكنها قد تغفل فيها فتفسد فتضعف فتموت . وكذلك حقوقه المادية كلها . ولا حاجة لان اضرب لكم الامثال ايضاحاً . فحرية الحركة مثلاً من حقوقي الطبيعية . وحريـة التابعية من حقوقي السياسية . وحرية الفكر والضمير من حقوقي النفسية . وسياج هاته الحقوق كلها الاخلاق . بل الاخلاق الطيبة السليمة المجيدة السامية . فاذا فسدت الاخلاق في امة نامت تلك الامة عن حقوقها . واذا نامت عن حقوقها استبـد حاكمها . واذا استبد حاكمها ساء حالها . واذا ساء حالها خربت

ديارها . واذا خربت ديارها حق لامة يافظة ناشطة راقيـة ان تتولاها فتعمرها .

ملك اساسه الجهل والسفه . وقوامه الاستبداد والجور . ومظاهره الفقر والبؤس والقذارة . له يوم من الدهر فيزول . امة لا تسمع فيها غير التأوه والانين . والصراخ والشكوى . لها يوم من الشقاء فيزول . ثم يبعث الله من يحل قيودها . ويمسح دمعها . وينعش بالعدل نفسها . وبالعلم يجدد قواها . كانت ايام تباد فيها الامم . يبيدها الجهل او الوباء او المجاعة او الظلم او الحرب . واما اليوم فالامم تجدد شبابها لان المعارف والعلوم غير منحصرة في فئة صغيرة من الناس . والاوبئة التي تساعـد في افشائها الاضاليل كعقيدة القضاء والقدر وغيرها يكاد العلم يستأصلها . وعاطفة في الامم الراقية شريفة تمدها اموال كثرت في البلاد المتمدنة لا تمكّن المجاعات من البشر . والحكومات الاستبدادية لم تعد تطاق . والحروب شبـه حروب أتلاً وجنكيزخان امست في خبر كان . فـلا خوف على الامم اليوم اذاً الا منها وفيها . الخطر على حياتها في قلبها . في نفسها . في حكومتها . في الخاسيء الجامد من علومها ومذاهبها وتقاليدها . في فساد اخلاقها واحكامها وشرائعها .

« وجدت الشرع تخلقه الليالي   كما خلق الرداء الشرعبي »

فالاخلاق السليمة السامية المجيدة انما هي سياج حقوقنا

كلها بل هي من اهم اركان الترقي والعمران • انها لنور العدل في الملك • ونور الايمان في الدين • ونور الصدق في العلوم • ونور الحياة الحقة في الامة • ولنا ان نسأل ما هو مصدر هاته الانوار المعنوية وما هي خاصتها وغايتها • وبكلمة اوضح ما هي الاخلاق ؟ وما هي اصولها واسباب رقيها ؟ وما هي عوامل الفساد فيها ؟ وكيف تصلح اذا فسدت في الامة ؟ سأجيب مختصراً عن كل من هذه المسائل ثم اقابل بين ما تسامى من اخلاقنا ومن اخلاق الغربيين لعلنا نهتدي الى الاسمى فنتخلق بها •

١

الخلق غير الطبع والمزاج • الخلق اطلاقاً ما يظهر من الفكر والنفس • والمزاج ما يظهر من الشعور • وفي القاموس الخلق الطبع والسجية والمروءة والعادة والدين • فجاء في التحديد بين الطبع والدين ما قد يكون من اهم مظاهر الاخلاق واصولها • ففي الطباع والسجايا شيء من الوراثة التي ليست من بجنى الليلة واما المروءة مثلاً فخلق في الناس • المروءة مظهر من مظاهر النفس بل صفة راسخة من صفاتها لا يحتاج صاحبها الى اجتهاد او تكلف في اظهارها • وكذلك الشجاعة والكرم والحلم • وكذلك الجبن والبخل والغضب • هذه اخلاق قد تكون خاصيتها معنوية ومادية معاً • قد تكون في كريات الدم وفي الجهاز العصبي

. وقد تتصل اسبابها بنجوم السماء . ان مزايا النفس السامية التي لا يأتي عليها كيل ولا قياس ليراها الناس فيقدرونها انما هي مادية روحية . ومصدر المادة فيها لم يزل غامضاً نوعاً كمصدر الروح . اما المتطرفون من علماء النفس وعلماء المادة فعلى غير هذا الرأي . على انه لا ينكر ان مزايا النفس في بعض احوالها كالكهرباء لا تعرف الا بمظاهرها . ففي الخلق العظيم المجيد شيء من طبع البربري واشياء من سجية النبي الالهية . واما الخلق العظيم عند السالكين اي الاعراض عن العالم والاقبال على الله تعالى بالكلية فتلك مسألة اخرى اجيء بعدئذ على ذكرها

ولهذه المزايا النفسية علم هو علم الاخلاق او علم السلوك الف علماؤنا فيه مجلدات قلت فائدتها على كثرتها . وقد تستغربون قولي ان في علم الاخلاق عندنا ما يفسد الاخلاق السليمة السامية . كان العرب في صدر الاسلام وفي الجاهلية يقوّمون المعوج في اميرهم بحد السيف . كانوا يقولون للظالم المستبد من اسيادهم . اما ان تعدل واما ان تعتزل . ويعملون بما يقولون . فجاء بعدئذ من علّموا علم الاخلاق بمقتضى الحكمة العلمية فقالوا . « ادفع اليهم ما طلبوا من الظلم ولا تنازعهم فيه وكف لسانك عن سبهم » و « لا تجعل سلاحك على من ظلمك الدعاء عليه ولكن الثقة بالله » وقال مالك بن دينار والكلام منسوب الى الله « لا تشغلوا انفسكم بسب الملوك ولكن توبوا اليّ اعطفهم

عليكم » . وقيل ايضاً والكلام منسوب الى نبي الاسلام « سيروا على سير أضعفتكم » .وكثيرة في كتبنا العربية امثال هذه الحكمة العملية التي قلما تراعى الحقيقة فيها . وضعت لتقييد المظلوم وانزلت لتأييد الظالم . فافسدت اخلاق الاثنين .

اما الحكمة الخلقية فبينها وبين الحكمة العملية تفاوت عظيم وفي تراجم النوابغ من رجال التاريخ مثال حي لهذا التفاوت . خذ اياً منهم (يوليوس) القيصر او نبي العرب او (لوثيروس) او (كراموبل) او (نابوليون الاول) . نوابغ السيف. والروح والقلم نوابغ الملك والدين . كل خطير النفس . رفيع الاهواء . بعيد الهمة . كانت شرعته الحكمة الفطرية في ما ناله من جسيم الامور الى ان صار سيداً في الناس ورب ملك في العالم . فوارس من فوارس السماء اوقدوا في الناس مشعال الحرية والحقيقة فملأوا البلاد نوراً ظنوه نورهم .فرفعوا انفسهم الى مقام الآلهة . واتخذوا الحكمة العملية سيفاً لتعزيز شؤونهم وتنفيذ مآربهم .وفي الشرق حتى اليوم ملوك وامراء . لايستحقون ان يكونوا عبيداً لاولئك النوابغ الابطال . يرفعون انفسهم الى مقام الالهة ويكلفون الناس التبخير والسجود .

« ومن شر البرية رب ملك   يريد رعيةً ان يسجدوا له »

الاخلاق قوى كامنة في النفس تؤثر فيها الحوادث والاشياء فتظهر عفواً لغرض اولي هو ارتياح النفس واطمئنانها . ولا

يطمح صاحبها بادىء بدء الى معالي المجد او الشهرة او الغنى او السيادة • خذ الغربي الراقي في امة فسدت حكومتها • فهو يناهضها في الدرجة الاولى طوعاً لحكم ضميره فتطمئن نفسه • ورغبةً باصلاحها ثانياً فتصان حقوقه • واذا تتبع عمله اصابه في الدرجة الثالثة منه بعض النفع والفائدة • فيغره اذ ذاك الكسب وتستهويه السيادة فيصبح وا اسفاه سياسياً شرعته الحكمة العملية • اما الشرقي في مثل حاله فقد يتمثل باقوال الحكماء التي ذكرت شيئاً منها ويستعيذ من الظالم بالله • اذا وقف الغربي عند الدرجة الثانية من عمله كان عمله شريفاً مجيداً • واذا تعداها كان عمله مشوباً مشيناً • وفي كلا الحالين يظل احسن من ان « ندفع اليهم ما طلبوا من الظلم ولا ننازعهم فيه » ان عظم الهمة • والجرأة الادبية • ومناهضة الظلم والظالمين • لاخلاق غربية • وان التصون والتقية والاستسلام الى الاقدار لاخلاق شرقية • • •

« نشكو الزمان وما اتى بجناية ولو استطاع تكلماً لشكانا »



قلت ان الاخلاق مزايا راسخة في النفس تظهر في مظاهر شتى لغاية اولية هي ارضاء النفس واطمئنانها • كالاستسلام الى الاقدار مثلاً عند الشرقيين • او السعي في مناهضتها عند الغربيين • او الهرب منها عند السوريين • لننظر الآن في اصول

الاخلاق وعوامل التربية فيها . اذا اجلنا الطرف في عالم الحيوان رأينا فيه امثلة من العمل والصناعة ورقي الحواس قلما نشاهد مثلها في الانسان . ولكننا لا نرى فيها عامل الرقي حياً ثابتاً دائماً . فالنمل مثلاً لم يرتق في عمله منذ مدحه سليمان الحكيم — كأنه مثل الانسان يضر به الاطراء — ولا النحل ارتقى في صناعة العسل ولا البلبل في فن الانشاد . ومهما بالغ الانسان في تربيتها تظل الغريزة فيها واحدة . وتبقى قواها محدودة . وفي الانسان شيء ادبي روحي ثابت لا تؤثر فيه الحوادث والاشياء .

الانسان مدني بالطبع وسيبقى مدنياً . وفيه فطرة خير لا يضعفها نكد الدنيا ولا يزيلها البؤس والاستعباد . وفيه عاطفة الحب حية ابدية . وفيه نزعة الى المجد والعلى هي اكليل اهوائه العالية كلها . وفيه نزية سامية الهية تحبب اليه ما هو ثابت دائم ازلي فيعجب من مظاهرها في النمل والنحل والطيور . ويأخذه الخشوع والتهيب عند ما يشاهده منها في نظام الكواكب والافلاك . وعندي ان هاته الخاصية البشرية الالهية التي تتساوى اصلاً في الناس . البدو منهم والحضر . وتتفاوت فرعاً . انما هي المصدر الخفي لما ينشأ فينا من الاخلاق فتتباين وتتفاضل عملاً بسنة الالفة والانفراد . فخلق النساك هو واحد . في الهند وفي جبل آثوس . لا يتغير . والوفاء في الكلاب لا يظهر الا في مرافقتها الانسان . واخلاق البدو من العرب كانوا او من زنوج

امير كا هي واحدة . وما يصح في البدوي يصح في القبيلة . وما يقال في الرجل المتمدن يقال في الامم المتمدنة . اي انها لاتفضل بعضها بعضاً ادباً واخلاقاً ولكنها تختلف في ذلك اختلاف عاداتها وتقاليدها وشرائعها . حرية الافرنسي الجمهوري مثلاً لا تفوق حرية الانكليزي الملكي . وليست اخلاق الانكليز بافضل من اخلاق الفرنسيس . بل الامتان تستويان في الفطرة البشرية السامية كما تستوي افرادها ولا تختلفان الا ظاهراً وعرضاً كما تختلف الطيور في ريشها ولونها وكما تختلف في شكلها اوراق الاشجار — لا يفوتنكم ان موضوعي الاخلاق لا الطباع — اما النزعة الشديدة الى العلم . والطموح الى المآثر العالية . والصبو الى استطلاع ما وراء الاشياء . الى اكتشاف اسرار الطبيعة ليستخدم ما فيها من القوى الكامنة في سبيل الرقي والعمران — رقي الانسان وعمران البلاد — فهذه كلها من المزايا الراسخة اليوم في روح المدنية الجديدة . ولا فضل لامة على اخرى الا بما احرزته من جسيم الامور في مضمار الفكر والبحث والعمل . وبما اكسبها نوابغها من مجد في سبيل الانسانية ومفخرة . وهذه السجايا الشريفة في الامم انما هي نتيجة الاخلاق السامية في افرادها العاملين . وهي السبب ايضاً في ما قد يكون اسمى منها في ابنائها الآتين .

يقال ان الانسان ابن الاحوال اسير الحوادث . خاضع

لاحكام الزمان مقود بزمام القضاء . وقد يكون الحيوان وما في البشر من الحيوان كذلك . اما الانسان – وفي كل جماعة وكل امة تجده – فهو فوق الاحوال والجموع والحوادث . وهو في الاحايين يتغلب على القضاء . فيكتشف بلاداً جديدة . ويغير خريطة العالم . ويذلل العناصر . ويسوق الى غرضه سنن الاكوان ويهدم الهياكل ويؤسس الاديان . يزعزع الممالك ويبيدها وينفخ في الامم المائتة روح الحياة . الانسان حر في ارادته وعمله وفكره مهيمن على نفسه . مالك زمام الحوادث التي ترفع به الى ما فوق اصطلاحات الجموع واحكام الناس . ولو لم يكن كذلك لكان اعتقادنا بالله باطلاً . لو لم يكن كذلك لكانت اخلاق البشر كغرائز الحيوان . لا يعمل بها ناموس النشوء الحي . ولا تؤثر فيها عوامل الارتقاء الثابتة .

يقال ان سر السعادة هو في تكييف اميالنا لتوافق الاحوال التي نحن فيها لا في تكييف الاحوال لتكون لنا سلماً الى تشوقاتنا البعيدة وآمالنا العالية . وقد يكون هذا سر النجاح في التجارة وفي السياسة لا سر السعادة . وقد يوافق الصيرفي والاسكاف والبقال . ولكن الانسان المدرك ما فيه من قوى الاكوان الكامنة الناظر الى اليد العلوية التي ترصع الافلاك بالنجوم . وتخط فيها الاسرار . وتنصب منها للنفس البشرية محجة انوارها لا تنطفئ – الانسان الذي لا يعيش ليومه ولنفسه .

يرى ان عليه ان يسعى ابداً سرمداً في ترويض عقله للفكر . وارادته للعمل . وشعوره لما رق ودق في الحياة . علينا ان نجاهد في سبيل العلم الذي هو اساس ملك الانسان في الدنيا وفي الاخرة .

هذه الارض موطىء قدمي الله وموطىء قدمي الانسان . ما فيها ينبغي ان يكون طوع ارادته . خاضعاً لفكره . عاملاً بمشيئته . البخار والكهرباء والاثير درجات في الفكر والاكتشاف تؤدي الى درجات في سماء النفس فوقها . من كان ليحلم في الماضي ان قوة كامنة في الفضاء يتمكن الانسان من تسخيرها لتحمل انباءه من اربعة اقطار العالم بعضها الى بعض . التلغراف اللاسلكي اليوم . والتلفون اللاسلكي غداً . وبعد غد ان شاء الله نخاطب بعضنا بعضاً بواسطة النفس التي هي آلة الفكر الكهربائية . أتقول ان هذه اضغاث احلام ؟ ولكن احلام السلف واوهامهم هي اليوم حقائق راهنة .

اجل سادتي . ان هذه الارض وهي ذرة في فضاء الاكوان بما فيها من قوات ظاهرة وكامنة . وبما فوقها وحولها من العجائب والاسرار . انما هي موضوع مساعي الانسان الفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية . « ان الوجود لسر مكشوف » كما قال الشاعر الالماني الشهير . ولا يرى منه ويدرك على ما اظن غير ما نستطيع استخدامه والانتفاع به . وما يرى ويدرك لا يذلله غير العقل . ولا يعمل العقل الا حراً مشجعاً . ولولا هذه الحرية

وهذا الاقبال على العلم في البلاد العامرة الراقية لما اتصلنا الى ربع ما نحن فيه ممتعون من ثمار العلوم والصناعات . وان حب العلم وتشجيع العاملين به لمن ثمار الاخلاق الشريفة السامية .

٣

ها قد عدنا الى اصول الاخلاق بعد ان انتقلنا قليلاً الى بعض نتائجها . اجل ان اصول الاخلاق لفي هذه النفس الخالدة القلقة السامية المتيقظة النازعة الى استطلاع انباء ما وراء الطبيعة لاصلاح شؤون المجتمع ولرفع شأن الافراد فيه والجماعات . والاخلاق في نشوئها ونموها وتنوعها خاضعة مثل مظاهر الكون لعوامل خارجية طبيعية واجتماعية. ولكن طيب شذاها لا يتغير على تنوع عوامل الرقي فيها . غصن ورد تزرع نصفه في تربة حارة في اقليم حار ونصفه الاخر في تربة باردة في اقليم بارد فلا يتغير في وردها غير الحجم واللون. اما شذا الوردتين بل نفسهما بل خلقهما فهو واحد في الحالين. هذا في النبات . وفي السياسة اذا تغيرت الاحوال تتغير مبادىء السياسيين . واما فضائل النفس فهي واحدة في كل مكان وزمان . والنفس الكبيرة السامية لا تعمل فيها الحوادث ولا تفقدها الاحوال فضيلة واحدة من فضائلها . على ان مسلكها قد يتغير في الناس ويتنوع فتكسبه الاحوال شيئاً من روحها وطبيعتها . قال ابن خلدون

« الانسان ابن عاداته ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه » والاصح انه ابن الاثنين .

من الباحثين في طبائـع البشر والعمران اناس يقولون ان عوامل الهواء والشمس تغير في جوهرهـا تغييراً بيناً . ومن هؤلاء العلماء (منتسكيو) وابن خلدون . اما ظاهر تأثير الهواء والشمس ففي الاجسام كما نشاهده مثلاً في الوان البشر وريش الطيور . رأيت في احد متاحف لندرا نوعاً من الطير من فصيلة واحدة بعضه من اقليم بارد وبعضه من اقليم حار ولا يختلف سوى لون الريش في الطيرين . اما تأثير الاقليم في الاخلاق البشريـة ففيه نظر . يقول (منتسكيو) ان الجبن خُلق في سكان البلاد الحارة وان الشجاعة من اخلاق سكان البلاد الباردة . ولكن الرومانيين قديماً (سكان ايطاليـا الحارة) غلبوا السكسونيين (سكان بريطانيا الباردة) فتأملوا . وعندنا في العرب شاهد آخر . كان عرب البادية احسن خلقـاً وارقى نفساً من اهل البلدان المتمدنة التي احتلوها وسادوها . ناهيك بشدة باسهم وشجاعتهم . فاذا كان صحيحـاً ما يقول ابن خلدون و (منتسكيو) ان الحر يذهب بالبأس والمنعة . وهما من الاخلاق المجيدة في الناس . لِمَ لم يؤثر قديماً في الرومانيين ولِمَ لم يؤثر في العرب ؟ او ليست شجاعة الامم المعنوية الروحية فوق شجاعتها المادية ؟ قد فات ابن خلدون هذا . وما قولنا في الحبش وهم جيران العرب يسكنون

في منطقة واحدة ولا يفصل بين الامتين غير البحر . فاين منهم بأس العرب ومنعتهم ؟ واين آدابهم واين شعرهم واين نبيهم ؟ فهل تُشقي الشمس قوماً وتسعد قوماً ؟ وهل كان الاقليم محابياً في امة متحاملاً في اخرى ؟

وهاكم مثالاً آخر من بحث ابن خلدون في تأثير الاقليم في الاخلاق . وصف السودانيين بالخفة والطيش وشدة الطرب ونسب ذلك كما فعل (منتسكيو) بعده الى هواء بلادهم وشمس الاقليم الحارة . وقد كتب (تسيتوس) المؤرخ الروماني فصلاً في الشعوب الالمانية القديمة الذين استوطنوا البلاد الشمالية الباردة فوق نهر الدانوب فوصفهم كما وصف ابن خلدون السودانين بالميل الشديد الى اللهو والطرب فقال « انهم في ايام السلم لفي هرج ومرج دائماً قائمون » . ولم ينسب المؤرخ الروماني ميلهم هذا الى العوامل الطبيعية . ان اخلاق القبائل في امور كثيرة هي واحدة كما قلت ولا تختلف باختلاف الاقليم كما يظهر مما تقدم . اما اذا كانت طبيعة الفرح والسرور انتشار الروح الحيواني . كما يقول ابن خلدون . وطبيعة الحزن انقباضه وتكاثفه . فتكون الحرارة سبب الاولى ويكون البرد سبب الثانية . ولكن هذا نظر سطحي . فالالمانيون القدماء كانت تغلب فيهم كما قال المؤرخ الرومابي طبيعة الفرح والسرور . واهل اوربا الشمالية اليوم وهم من سليلة اولئك الاقوام تغلب فيهم طبيعة الحزن

والكآبة . وهواء تلك الاصقاع اليوم هواؤها منذ الفي سنة . واقليمها واحد لم تتغير فيه شمسه وسماؤه . فما السبب في تغير طباعهم ياترى ؟

لم اكن لاستوقفكم عند هذا البحث لو لم تكن قد اتهمت سماؤنا نحن السوريين بخمود طباعنا . فقال الاوروبيون ان لطيف هوائنا وجميل جونا لما يدعو الى الخمود والخمول . ومعاذ الله ان تكون هذه السماء الجميلة سماؤنا امّ هاته الآفات في ابنائها . وانما هنالك عوامل اخرى مدنية ودينية وادبية غير عوامل الشمس والهواء والحر والقر . ان الاخلاق مزايا راسخة في النفس تعمل في اظهارها الاحوال الاجتماعية في الدرجة الاولى . ومن هذه العوامل الاجتماعية العادات والتقاليد والشرائع والاديان . فهي تعمل في اصلاح الاخلاق كما تعمل في افسادها .

وها كم مثالاً من ترهات امة شرقية مما لم نزل نحن في بعضها . كان للتتر ايام جنكيزخان قوانين واحكام سخيفة يراعونها وينزلونها منزلة الشرائع الالهية . ومن اغربها ان من يرمي سكيناً في النار يعد مجرماً قصاصه الشنق . وكذلك من نام على سوط . او ضرب حصاناً برسنه . او كسر عظماً على عظم آخر . ولكنهم وان احترموا مثل هاته الترهات من الاحكام لم يروا في نكث العهد عيباً . ولا في السرقة والنهب والقتل ذنباً . فالاحكام السخيفة والقوانين الباطلة افسدت اخلاقهم فامسوا لا يعرفون

من الخير والشر غير ما اجازه الحاكم او ابطله • والشرائع السخيفة الباطلة في امة لاتعرف غير اميرها سيداً تذهب بحرمة النواميس الطبيعية والالهية • ناهيك بما لها من التأثير الخبيث في روابط الالفة وفي الجامعة الوطنية •

« ان الشرائع القت بيننا احناً   واودعتنا افانين المداوات »

ليس الذنب اذاً ذنب سمائنا وهوائنا • بل هي الشرائع كما قال المعري ولم تزل كما كانت في ايامه تعبث بالعقول وتفسد في الاخلاق و

« كم وعظ الواعظون منا   وقام في الناس انبياء »
« فانصرفوا والبلاء باق   ولم يزل داؤك العياء »

٤

اما عوامل التربية في الاخلاق فعديدة اذكر اهمها الليلة ولا افيض فيها لضيق المقام • واذا حصرت النظر في اوروبا فلأن مدنيتها خلاصة مدنيات العالم جمعاء • في الاعصر الخالية عند سقوط الدولة الرومانية كان الدين المسيحي العامل الوحيد الصالح في تلطيف اخلاق البرابرة هناك • ولكن الفساد الذي اعترى الكنيسة واربابها بعد ذاك تفشى في البلاد وعم شعوبها فخيمت عليهم ظلمات امرها في التاريخ مشهور • وكلنا نعلم ما كانت فيه تلك الامم من الجهل والخرافة والخمول يوم اشعل

العرب مشعال العلوم في بغداد فاتصل نوره بالاندلس وشع منه اشعة في صوامع الرهبان في اوروبا . فالرهبان اذن اول من اشتغلوا في احياء العلوم في بلاد لم يكن ليسمع فيها غير قرع الرماح . وصليل السيوف . وصوت الكنيسة الرهيب . وللحروب الصليبية فضل في تدميث اخلاق الاوروبيين . وتلطيف اذواقهم وتحسين نسلهم . ونظام الاقطاعات الذي لا يرى فيه بعض المؤرخين غير الجور والعسف والاستبداد ربى في العامة اخلاقاً شريفة اهمها الوفاء والصدق . واسس في الاسر الاوروبية سيادة المرأة . والنهضة الاصلاحية الدينيـة حررت نفس الانسان من قيود السلطة المطلقة . والثورة الانكليزية الاولى اعطته حجة بحقوقه . والثورة الافرنسية الشهيرة متعته بها وعلمتـه التؤدة والاعتدال . وهناك عوامل اخرى عـديدة كاكتشاف اميركا . واختراع الطباعة . واحياء الفنون والصناعات . مما هو من نتاج العقل الذي يجلو مظاهر الاخلاق ويشحذها .

ولا يفوتنا ان نذكر بعض الفلسفات الاوروبية وفضلها في تهذيب الاخلاق كالفلسفة الاستقرائية التي احياها (ديكرت) في فرنسا و (بايكن) في انكلترا فلقنت الاوربي حكمة الريب وعودته ان يسأل « كيف ولماذا » في كل عقيدة ومذهب وتعليم وحببت اليه البحث العلمي والتمحيص . ثم الفلسفة الكمالية الالمانية التي غذت عقله ونفسه . ثم الفلسفة الانكليزيـة العملية

التي غذّت جسده فاشتد ساعده وصحت عزيمته . وفي هاته الفلسفات كلها ترى ان المقام الاول في العمل انما هو للارادة . فالارادة اذا ضعفت في المرء ضعفت فيه فضائل النفس والعقل والجسد كلها . والارادة مثل كل الجوارح فينا ينميها الترويض وتعززها الممارسة . وهل تظنني مغبوناً اذا حرمت نفسي قليلاً مما اعتدته من اساليب الراحة والرفاه او عملت عملاً صغيراً استثقله متعمداً في ذلك لا اماتة نفسي بل ترويض ارادتي للعمل ؟ فاذا مر علي سنة وانا كل يوم اعزم عزماً مهما كان صغيراً وانجز العمل بـه استطيع ان اقول مع الفيلسوف (كنت) « عليّ ان افعل اذن لي ان افعل » . اذ ما الفائدة من هذه الافكار الجميلة افكارنا . ومن هذه الاخلاق الفاضلة المجيدة . اذا كنا لا نروض انفسنا لهـا . ونعمل بها عازمين حازمين . لينتفع بها الناس ولينتفع بها الوطن ؟

ولا انكر ان الضرورة في الاحايين تغير من اخلاق الناس فتحسنها او تفسدها . ضاقت مدينة اثينة على سكانها ايام مجدها والارض المجاورة لم تكن خصبة فقلت المواشي وعزت فأغفل الناس الاضحية . فافتى الحكماء . ان هدية تهدى الى الالهة لخير من ثور يذبح لها . فاتخذ الاثينيون الفتوى سنّة لانهم كانوا اشد من الالهة حاجة الى اللحم . وكان هذا سبب اعتدالهم وحكمتهم حتى ان الناس بعدئذ . وقد نسوا او جهلوا الاسباب . قالوا ان الاثيني ارقى في خلقه الديني من سواه . ومثل هذا في

التاريخ امثلة عديدة لامور صغرت اسبابها و كبرت نتائجها .

اما عوامل الرقي الفلسفية والفنية التي ذكرتها فقد لا تلزم لتهذيب الاخلاق في القبائل البدوية.وقد تحرم منها امة وتكون اخلاقها سليمة كأمة العرب في صدر الاسلام . ولكن الملك اذا اتسع وتعددت فيه المساعي والنزعات قام في ظله من مظاهر الابهة والجلال . والنفوذ والاقتدار . ما لا تسلم عواقبه ويسلم الملك منها اذا حرم عوامل الرقي الخلقية والعلمية والفلسفية والفنية . ولنا على ذلك شاهد من الدول الشرقية الماضية ومن الدولة العثمانية اليوم . ولكن بحثنا الليلة في الاخلاق لا في السياسة .

قد اتضح لكم اذاً ان العوامل الاجتماعية تؤثر في الاخلاق مثلما تؤثر عوامل الاقليم اي الحر والبرد في الحيوان وفي ما هو حيواني في الانسان . بقي علينا ان ننظر خصوصاً في ما يحط الاخلاق ويفسدها فتخمد في سبيل المجد والعلى ولا ينشط صاحبها الى نصرة ما فيه اقامة حقّ او ازهاق باطل . ولا يطمح الى مأثرة ولا تسمو الى مرقبة همته . بل يغضي على الضيم خاملاً وقد رئم المذلة والاستعباد . وان عبداً لعاداته الذميمة لكمثل عبد الحكومة الاثيمة . ففي الغرب كما في الشرق مذاهب وعقائد وتعاليم تذهب بالبأس والمنعة والشجاعة والاباء فتطفىء في المرء نور الضمير . وتخدر منه الحس والشعور . وتقعد فيه الارادة الا

في سبيل الاباطيل والمنكرات . احقـاً ان الغاية القصوى من الحياة ان ينجح الانسان في عمله مهما كان و كيفما كان؟على وسلك ايها المتكالب في سبيل المال العابث بما في الحياة من جوهر الكمال . ان في الحقول وفي الحراج وفي المناجم مـا في السماء وفي البحار وفي النفس البشرية من جمال . لا يوزن منه للتجار ولا يكال . وانت ايها الزعيم زعيم العمال . سمعت اناساً يقولون انك تتاجر بالفقر والفقراء فتمسي غنياً . وانتم ايها البائسون المؤمنون بمن لا يصدقون ويلمكم ساذجين . يشحذون فيكم الغرائز ويقضون على اخلاق سليمة فيكم خامدة ويغرون عليكم الاسياد . والى غاياتهم على بؤسكم يسيرون .

«وما انخفضوا كي يرفعوكم وانما رأوا خفضكم طول الحياة لهم رفعا»

وسيدي صاحب الدولة والرتب العاليـة انجيله غير انجيل المسيح الذي يتبجح باسمه . انجيله كتاب عرفناه . هو « كتاب الامير » رأيناه يتخذه دستوراً لاعماله واقواله . (« وكتاب الامير » لمكيافلي ايها السادة يعلم الكذب في السياسة والمكر والغدر والسفسطة والرياء)

قال (الكردينال ريشليو) في وصيته السياسية : ان الحاكم لا ينبغي ان يولي صاحب الشرف والوجدان . وفي كتبنا العربية التي تعلم الملوك والسوقة السلوك كثير من هذا . وان نصيحة (ريشليو) لتذكرني بما قاله عمر عندما عزل زياد بن ابي سفيان .

قال زياد : لمَ عزلتني يا امير المؤمنين ألعجز ام لخيانة ؟ فقال عمر : لم اعزلك لواحدة منهما ولكني كرهت ان احمل فضل عقلك على الناس. فالشرف اذاً والكياسة والذكاء والوجدان عيوب في صاحب السياسة . غربياً كان او شرقياً . الا اذا استخدمت في المصانعة والكذب والمكر والخداع .

على ان الشرقيين قد لا يرون في مدنية اوروبا غير آفات افضتُ فيها في خطاب لي سبق فينفرون منها بل ينبذون من اجلها المدنية كلها زاعمين ان فيها ما لا يوافق حالهم وشؤونهم وطباعهم . ولعمري ان ما فسد في تلك المدنية لا يوافق احداً من الناس لا شرقيين ولا غربيين . وفي اوروبا واميركا كثيرون من ذوي الرصانة والحصافة . نوابغ في العلوم وفي الفنون وفي الآداب . يحملون على ما في مدنيتهم من الموبقات والمنكرات واكثرها آفات ظاهرة تعرف الحكومة كيف تتأثرها لتصلحها او لتستأصلها . واما في الشرق فآفات المدنية خفية دقيقة يصعب على العلماء معالجتها ويعجز في سبيلها الحكام . الغربي بما فطر عليه من حب الحرية والجهر بالامور يجرأ على عمل قد يكون مخالفاً سنن العدل المصطلح عليها ولا يخفي قصده عن الناس بل يسير اليه في رائعة النهار ويعززه بحجة عقلية او سياسية . وقد يكون مجرماً مع ذلك او فوضوياً . او شاعراً او سرياً . اما الشرقي فنفسه كتاب من الاسرار مختوم لا يعلم منه الا ما نقش على الختم —

« اللطف . المجاملة . المصانعة . الاستسلام » — تحدث الشرقي في اجل الامور او في احقرها . وتطلق لنفسك العنان في النصح او النقداو التقريع . فيهز رأسه موءمناً محبذاً — اي نعم — تمام — الحق معك — هذا صحيح — حبذا والله — ثم يذهب في شأنه ثابتاً في ضلاله .

اخواني . في كل اخلاقنا الكريمة الشريفة ما وجدت خلقاً واحداً يقارن الجرأة الادبية والحرية الادبية . شعوب وامم تفرقوا مذاهب وهم في حاجة الى التفاهم قبل كل شيء . ومفتاح التفاهم التصريح بمقاصدنا وغاياتنا . التصريح بما تكنه افئدتنا مما يختص بشوءوننا الاجتماعية والدينية . اما هذه الحرية السياسية التي ترفع في الجرائد وفي الاندية عقيرتها فليست صافية من شوائب التقية والتعصب والمخاتلة . لم يزل هذا الشرقي شرقياً مسلماً كان او مسيحياً . فيقف مثلاً امام الحاكم مكتفاً مزرراً . ويتأدب تأدباً لا يمنعه من الغيبة والنميمة عندما يخرج من الديوان . ويظهر ان سب الحاكم سراً . هو خلق قديم من اخلاق الشرقيين . لذلك قيل في الامثال . ادفع اليهم ما طلبوا من الظلم ولا تنازعهم فيه . وكف لسانك عن سبهم .

على المرء ان يدفع الحجة بالحجة . والظلم بالحق . بل بالتمرد اذا اقتضى الامر والعصيان . فيكون التمرد اذ ذاك حقاً والعصيان واجباً . عليه ان يطالب ابداً بحقوقه المهضومة مهما

كانت . فاذا نام عن صغيرها لا يستطيع صيانة كبيرها . ولكن الشرقي . لوفرة ادبه . او لكبر نفسه . او لشدة ورعه . يغضي على الضيم ويعود الى الله . وقد يتأوه في سره ويشكو الزمان . والحق يقال ان في الناس حتى في الغرب كثيرين مثل الشرقيين يسكتون ولا يعارضون ما زالت تجارتهم رائجة . وما زالوا على شيء من العيش رغد هني . ولكن هذه المظالم التي اصبحت من المزايا الشرقية المحضة لا تكثر في الامم الغربية . ولا بد للتجار اصحاب الذراع والميزان من المجاملة والمكايسة . فالحضارة تنبه في الانسان غرائز لا اثر لها في فطرة اهل البادية . وحبذا اخلاق العرب . حبذا البأس والمنعة وعزة النفس والمروءة والاباء والشهامة والوفاء . ولكن الاحكام الشرقية والتقاليد الدينية والمذاهب السياسية ذهبت باكثرها

« في كل جيل اباطيل يدان بها فهل تفرّد يوماً بالهدى جيل »

ترانا لا نأتي عملاً لا يكون منصوصاً عليه في كتب الدين . ولا نخطو خطوة لم يخطها قبلنا اجدادنا . ولا نقول في مشاكل الحياة قولاً لا نستطيع اسناده او اسناد مثله الى احد الائمة الكبار . ولا يمسنا ضر او خير الا منه تعالى . فنتوه في جهلنا قائلين : انا لله ! ونتربع على بساط المذلة صارخين: انا لله ! ونركب مطية الجبن والعجز متأوهين: انا لله ! وتحل بنا سبع ضربات مصر فنصرخ مبتهلين : والحمد لله والشكر لله ! ! جيل هذا التناهي

في الورع والتقوى • جميل هـذا الصبر والاستسلام . ولكنَّ في المغرب امماً اراحوا الله من صراخهم وشكواهم فافلحوا • اي سادتي . خلق الله الطير ليطير بجناحيه لا ليتمرغ بهما في اوحال اليأس ويكسرها على صخرة الايمان • وأجنحة النفس والعقل في الشرقي لم تزل والحمد لله سليمة ولكنها مكبلة مقيدة • قيدتها القناعة والاستسلام . قيدتها عقيدة القضاء والقدر . قيدتها الاحكام الظالمة . قيدتها السيادة الدينية المطلقة • قيدتها الطاعة العمياء • قيدتها التقاليد والخرافات .بل قيدتها المرأة في قيودها . حلوا قيود المرأة الشرقية فتحل قيود الشرق كلها تدريجاً •

ومن غريب سجايا الشرائع والاحكام انها تحرر جيلاً من الناس وتستعبد آخر . كانت عقيدة القضاء والقدر قديماً من اكبر عوامل النصر في الاسلام – وهي اليوم من اكبر العوامل في تأخر المسلمين • والشريعة التي حررت المرأة من احكام الجاهلية وعاداتها أمست اليوم نيرًا على المرأة لايطاق . الشريعة التي تقبلها امرأة العصر الخامس لا تقبلها امرأة العصر العشرين. والتي تقبلها امرأة اليوم قد ترفضها امرأة الغد . وهذا هو ناموس الترقي الحي الدائم الذي يخدع المتشرع والمصلح والحكيم . سنن الادب والدين والسياسة انما هي من عقل الانسان • وانما هي التي ابقت عقل الانسان في قيود الجهل والعبودية زمناً طويلاً • على المرء ان يكون متيقظاً عاملاً ناشطاً مفكراً • فلا يقبل اليوم من الشرائع

التي سنت لاجداده ما لا يوافق حاله . ولا يساعده في ترقية نفسه وعقله • بل في ترقيـة قواه الحيويـة والروحية كلها . عليه الا يـكون ممن .

«عاشوا كما عاش آباءٌ لهم سلفوا · واورثوا الدين تقليداً كما وجدوا»
«فما يراعون ما قالوا وما سمعوا · ولا يبالون من غيٍ لمن سجدوا»

لو سلم (كولمبوس) بالمقدر لما سافر سفرته العجيبة وما اعظم تلك الثقة ثقته بنفسه ونتيجتها — عالم جديـد ! ولو سلم اولئك الانكليز القلائل بالقضاء ورضخوا لمظالم حكومتهم لما هجروا بلادهم . وما اعظم نتيجة تلك الهجرة — جمهورية جديدة عظيمة ! ولو سلم العلم باحكام القضاء لكانت الاوبئة والامراض تبيد سوريا وقبائل من البشر كل عام .

ومن العقائد التي تعلم السجود لغير الله ما هو مجحف بالفضيلة. مفسد للحقيقة الكلية المطلقة • كعقيدة الثواب مثلاً والعقاب . فالجحيم يجعل الانسان هلوعاً قاسياً جباناً • والجنة والسماء تنسيانه واجباته في هذا العالم . وما رأيت ورعاً اجمل من ورع من يمارس الفضيلة حباً بها ومن اجلها . اما عقيدة القضاء والقدر فهي المسؤولة عن اكثر ما نحن فيه من الاستكانة والمذلة والجمود . «عليَّ ان افعل» فالمقدر للجماد ولما فينا من جماد . لا للعقل المفكر والنفس الخالدة . ان الاحوال الظاهرة لبنت الفكر . وان الفكر لسيد الحوادث . ومن سعى سعياً جميـلاً في تكييفها لتوافق

نزعات النفس السامية • ولتحقق آمال الفكر العالية . كان من الصالحين المقربين من الالهة . وما يعترضنا في طلب الحقيقة . وفي تعشق صورة الكمال من جهل وتعصب وتقاليد وخرافات. فمن الشيطان هي لا من الله .وعلينا ان نناهضها لنذللها ونستأصلها تماماً.

قال (إمرسون) : « النفس الخالدة هي التي ترى الخلود في كل شيء وتساعد في تكوين العالم» . وفي النفس مرآة الهية تنعكس فيها صورة الكمال . وكل فكر جميل يصقلها وكل فكر خبيث يشوهها • علينا اذاً ان نهجر اميالنا السيئة وآمالنا الباطلة ونزدريها اذا اعترضت الفكر الجميل في سيره وسعيه وجده • ان ارادة الانسان اذا ادركها وروّضها لعظيمة • ومتى بدأ يقول « عليَّ ان افعل اذن لي ان افعل » . كما قال الفيلسوف (كَنت) . ويقرن بالعمل قوله • يتدرج الى السيادة المطلقة في ممالك الحيوان والنبات والاثير . وفي ما فوقها للنفس من ملك لا يُحد •

لكل منا دائرة اجتماعية صغيرة يستطيع ان ينير فيها مصباح الفكر والحب والارادة . ولكل منا سلسلة حوادث يتألف منها المهم في حياتنا الاصطلاحية فيستطيع ان يكيفها لتوافق ما سما من افكارنا وما سلم ورقَّ من شعورنا . هذا اذا كانت لنا ثقة بانفسنا فنعزز بالعمل الارادة فينا .

لا بدَّ من سقوط كل عقيدة دينية كانت او سياسية او

فلسفية من شأنها ان تبقي الانسان في ضعفه وجهله وخموله • ولا بد من اضمحلال مذاهب وتعاليم ركنها الاول من الوهم والخرافة • ولا بد من نسخ كل شريعة لا يقرها العقل ولا يخضع لها الضمير • وما نهض بالاوربيين من مهامه الجهل والهمجية والاستعباد غير تحررهم من خزعبلات السياسة والاحكام • ومن قيود الخرافات والاوهام •

في جزيرة جاوى نوع من الشجر لا ينمو في ظله نبت ولا يعيش حيوان • شجرة في جذعها واغصانها سم يسم تربتها وظلالها فتراها وما حولها من الارض الجدباء كأنها واحة في قلب البادية • وهذه لعمري شجرة الخرافة • يزرعها ارباب الدين في النفس فيسمون فيها الفضائل والاخلاق • وتمتد ظلالها الى العقل والى القلب فتفسد فيهما الفكر والشعور • شجرة جذعها من الخوف • وسمها من الجهل • واغصانها من الاوهام • وثمارها وان كانت كبيرة جميلة • فكتفاح سدوم قلبها من رماد وكبريت • فمتى يتقلص ظلك في الشرق ايتها الشجرة السامة المهلكة ؟ متى يستأصلك العلم من انفس الشرقيين ؟ ومتى يُطرَد هؤلاء الكهان الذين يرعونك بالتربية ويتاجرون بسمك وثمارك ؟

«نكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل اولى باكرام وتصديق»

اولئك الذين يتاجرون بتفاح سدوم يفسدون في الناس عقيدة الايمان الحقة • الايمان سر القوى البشرية من عقلية وروحية

وادبية . الايمان الحي الصادق يحرك صاحبه الى المفاداة بالنفس والنفيس في سبيل الحق والشرف والعدل والحب والمجد والعلى . وفي سبيل العلوم التي تحبب هذه الفضائل الى الناس . وفي سبيل الفنون التي تحيي فيها صورة الكمال . قديماً كان النبي الكاتب الشاعر في الناس . وما كان ليتهيب الموت اذا اعترضه في سبيله . فيسجل كلمته على اعداء الحق بل اعداء الله ولسان حاله يقول على الدنيا السلام . فأين شبه الانبياء في ادباء هذا الزمان وشعرائه . تراهم يتزلفون الى ذوي السيادة ويصانعون صوناً لمصلحة او جرّا لمغنم . اما الايمان فميت في صدورهم . فالاديب الذي يفادي بسعادته في سبيل ادبه . والسياسي الذي يفادي بمنصبه في سبيل وطنه . والعالم الذي يفادي بحياته في سبيل عمله . ان هؤلاء وان عدوا من الكافرين لمن اجمل الناس ورعاً واصحهم اعتقاداً واصدقهم ديناً . ذلك لان ايمانهم بالله . وبالحري بما في النفس البشرية من القوى الالهية الكامنة . لحي صادق مجيد . اتمجد الله ياهذا . كن عادلاً محباً منصفاً آمرًا بالمعروف ناهياً عن المنكر عاملاً في تحقيق امل واحد من آمال النفس السامية . فان في اقتدائك بالمقربين منه تعالى تمجيدًا كافياً لاسمه .

٦

عقائد في الشرق واضاليل تفسد العقول والاخلاق فما الذي

يصلحها ؟ لا اقول قول (منتسكيو) ان على الحاكم ان يستخدم القانون لينبه من اناهم الدين . او بالحري الاعتقادات الدينية الباطلة . التي تعزو الاشياء كبيرها وصغيرها الى قضاء لا يرد . فالعقائد الفاسدة لا تزيلها غير العقائد السليمة . والقانون لا يجرأ على اقتلاع شجرة الخرافة من اصولها لان ذوي المصلحة الذين يتاجرون بسمها وثمارها كثيرون . فالعلم الصحيح وحده ينبه من خدرته التقاليد والخرافات . وينعش منه النفس والجسد اما القوانين والاحكام فتعجز عن اصلاح ما افسدته من الاخلاق ان عصرنا لهو عصر البحث والنقد والتمحيص . واذا كانت لا تسود هذه الروح روح الزمان الراقية في آدابنا واديانانا وسياساتنا واجتماعياتنا . فلا تصطلح اخلاقنا ابداً ولا تفك فينا قيود العقل والروح .

في كل الفلسفات الادبية القديمة والحديثة ما وجدت اصلح من فلسفة الرواقيين واسمى . منشئها (زينون) اليوناني . فان فيها من المنبهات العقلية . والمقويات الروحية . ما لا نجده صافياً في الحقائق التي نُلقنها اليوم. فلسفة الرواقيين تعلمنا الواجب الذي لا يتعدى العمل به اللازم المفيد . وتعلمنا الصبر على الشدائد وعظم الهمة . وتعلمنا ان ننظر الى السرور والحزن بعين هادئة وقلب مطمئن . وتشدد العزيمة فينا فتحصن النفس من طوارىء الدهر وتعدها لنوائب الزمان . وتحبب الينا الفضيلة حباً بها لا

حباً بجنات تجري من تحتها الانهار . لمذهب الفيلسوف (زينون) الفضل الاكبر في عظمة رومية وبأس ابنائها . بل هو مهد رجالها العظام من قادة وسياسيين وفلاسفة وقياصرة . لو حكم عليّ بالتمذهب لما اخترت غير الرواقية مذهباً .

لا انكر ان ماضي الشرق غني بالنوابغ العظام . بالذين تفردوا ذكاء وروحاً واخلاقاً . فنظموا الشعر . واشترعوا الشرائع ووضعوا التعاليم . فكانوا اعلاماً يهتدي الناس بها . ولكن المعلمين منبهون مرشدون . والانبياء الى الطرق القويمة هادون . على ان « الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام » بل فطر على ان يهتدي بمصابيح العلم والحرية . فالعلم ينير الحوادث ودلائلها . والحرية تمكنه من الاستفادة بها فكراً وعملاً .

ان في كل قوم حكمة . ولكل زمان سياسة . وفي كل حال تدبيراً يبطل الاخير منها السابق لها . ان تعاليم (كنفوشيوس) السياسية تغاير الشرائع الدستورية التي تأسست عليها اليوم جمهورية الصين . وفلسفة بوذا الاجتماعية والدينية تتقوض في ظل الاحكام الانكليزية . وان ما انزل على نبي العرب لاصلاح حال العرب ورفع شأنهم اكثره لا يصلح اليوم لاصلاح شؤون امم كبيرة لا يستطيعون ان يعيشوا كالبدو في بيوت من الشعر .

وفي الشرقيين من ادركوا هذا ممن عظم خلقهم وكبر قصدهم

وبعدت همتهم . واننا لنرى شيئاً من هذا الادراك السامي حتى في المتفردين بالتوحش من الفاتحين . رجـل رجلاه في الدم وفي رأسه شيء من السماء نظر الى السماء وقال : اذا كان الله في كل مكان لمَ لا نعبده في اي مكان كان . ففي اشواك نفس (جنكزخان) الذي هـدم الجوامع واعتنق الاسلام وردة جميلة من وردات الحقيقة السامية.وان كلمته لتذكرني بما رواه لنا (القـديس اوغسطينوس) عن (فكتورينوس) العالم الوثني الشهير في زمانه فانه اخبر احد اصحابه يوماً انه اهتدى الى الدين المسيحي فقال صاحبه لا اصدق حتى اراك في الكنيسة . فقال (فكتورينوس) وهل الجدران تجعل المرء مسيحياً . الحقيقـة تتجلى في الاحايين للبربري تجليها للفيلسوف .

واننـا لنجد في الشرق اليوم في اي مدينة كانت اناساً تساموا عقلاً وخلقاً . ولكن خاصة اخلاقهم لازمة غير متعدية. بين ان الغربيين اذا سمت اخلاقهم صحت منهم العزيمة وبعـد القصد . فيعملون بما اوتوا من المواهب لخير الناس . واننا لنرى هذا الفرق في حكمتنا وحكمتهم كما قلت . وازيدكم من ذلك مثالاً . جاء في بعض الكتب ان الرجل الفـاضل الرشيد لا ينبغي ان يرى الا في مكانين . اما مع الملوك مكرماً . واما مع النساك متعبداً .هذه حكمة الشرق . انما الفاضل الرشيد من لا يرى لا مع الملوك مكرماً ولا مع النساك متعبداً .بل في معمعان

الحياة عاملاً . هذه حكمة الغرب . فالزهد والانقطاع عن الدنيا . كالاخلاد الى نعيم العيش كلاهما يورث الخمول والخبال . واذا سلمت عواقبه فلا يربي في صاحبه غير الفضائل اللازمة او السلبية . وهاكم قصة تمثل ما اريد :

التقيت مرة في الطريق على شاطئ البحر بدرويش اسمه الشيخ عبد الله وهو من السالكين . طريقته مولوية . فاخبرني انه وصل الى سوريا منذ خمسة عشر يوماً قادماً من الحجاز ماشياً . وقضى في الطريق خمس عشرة سنة . واخبرني انه جاء سوريا ليزور فيها قبر احد الاولياء في نواحي طرابلس .

«تركت ضياء الشمس يهديك نورها واتبعت في الظلماء لمحة بارق»

على انه بان لي بعد ان حدثته في طريقته واحواله — ولي نزعة الى استطلاع اخبار هؤلاء الدراويش — ان الحاج عبد الله على شيء من العلم . وانه في سلوكه وقنوته لمن الصادقين . ولم يطلب مثل اكثر اخوانه صدقة لوجه الله ولكنني عند مصافحتي اياه مودعاً وضعت في يده قطعة من نحاس هذه الدولة فقبلها شاكراً . وسرت في طريقي اتأمل في من جاء ماشياً من الحجاز — وقضى خمس عشرة سنة في الطريق — ليزور قبر ولي من الاولياء .

«أرسلت غربك تبغي الماء مجتهداً وما على الغرب لما خانك المرس»

وكنت وصديق لي نقصد يومئذ عمشيت لنزور فيها قبر ولية

من وليات البر والحجى . هي (هنريت رنان) اخت الفيلسوف الافرنسي الشهير . فكنا والحاج عبد الله سويين من هذا القبيل لكلانا مزار تحركنا اليه عاطفة الورع والتقوى . ولكن هذا غير ما ابتغي من القصة . في اليوم الثاني ونحن عائدون الى بيروت — وكانت السماء يومئذ ماطرة — تراءى لنا خيال اسود على حجر الى جانب الطريق . فاقتربنا منه فاذا به الحاج عبد الله يستريح تحت المطر من عناء السفر — وهؤلاء الدراويش لا يخافون الزوابع والرياح — فحدثناه ثانية . وقدم اليه رفيقي شيئاً من المال — وهذه النكتة — فرفضه قائلاً « لم يزل معي والحمد لله مما تفضلتم به البارحة » . القناعة كنز لا يفنى . ولكنه كنز لا يعمر البلاد .

خلق الحاج عبد الله ما يسمونه في لغة المتصوفين خلقاً عظيماً لانه اعرض عن العالم واقبل بكليته على الله تعالى . ولا اظنكم تجهلون ما في هذه الطريقة طريقة السالكين والنساك من تعطيل الحواس الظاهرة والكفران بالذات . وان السالك ليقتل ارادته ويخلد الى السكون الذي يولد الخمول والكسل . وفي الهند عند البراهمة غرائب من اساليب الكسل والخمول . عقيدة البوذي مثل عقيدة المتصوفين في نتائجها وفي بعض اصولها . والغاية القصوى منها اتحاد المرء والمبدأ الاولي الدائم مبدأ اللاشيء اي العدم الازلي . فالبوذي يغمض طرفه ويقول : انني جزء من

هذا اللاشيء الازلي اللانهاية له . وفي قتلي الارادة . واستئصالي الرغائب والآمال الدنيوية من صدري . افوز عـلى النفس فيتم التحادي بالظلمة الازلية الابدية . وهي تدعى عندهم « نرفانا » . اما المتصوف فيدعوها جمع الجمع . اي العزة الالهية . واذا سئل البوذي ما هي « نرفانا » . اجاب : اني حين اغمض طرفي واعود الى نفسي مردداً أم أم اظفر بها . أم أم ! ـ الله الله ! قد يسعـد النسك صاحبه . ولـكنه يخرب العالم

مثل هذه العقائد اصولها في اوحال العادات والخرافات . وفروعها في سماء النظريات والاوهام . لا تربي في المرء اخـلاقاً سامية مجيدة يتعدى خيرها . ولا يلازم صاحبها وينحصر فيـه . ومن سخيف تقاليدها مثلاً ما نراه متبعاً عند البراهمة فعـلى البرهمي ألا ينظر الى الشمس عند شروقها وغروبها . ولا يطـأ حبلاً ربطت به بقرة . ولا ينظر الى امرأته حين تأكل او تعطس او تتثاءب . ولا يلبس لطعام الظهر غير ثوب واحد . ولا يستحم عرياناً . وغيرها من آداب السلوك المستغربة المضحكة . حتى انه في ازالة الضرورة تراه مقيداً بخرافات بوذية . فقد حظر على البرهمي ان يزيل ضرورة على الرماد او في حقل مفلوح او على ربوة خضراء او على وكر نمل ابيض . وغير هذه من الاوهام التي يـنزلونها منزلة النواميس الطبيعية بـل الالهية . وهم مع ذلك اصحاب تجلة وكرامة . محترمون في قومهم مؤلهون . فـلا غرو اذا كانوا

متقاعدين متخاذلين خاملين . لا يعملون عملاً مفيداً . الجلالة والوقار والكسل قلما ينفصل بعضها عن بعض . وكل امة يغلب في شعبها وهم الابهة والجلالة . تستنيم الى الضعة . ويخمل منها الحس . ويكثر فيها الكسل .

هؤلاء نساك الروح . رهبان الشرق . براهمة ومتصوفون . يهربون من الحياة ويزدرونها . اما نساك العقل فاليكم خبرهم . في المغرب اليوم عصبة الفلاسفة المتفردين الذين يعرفون الاحكام ولكنهم لا يقرّونها . ولا يتعرضون لها مباشرة . يعيشون في حقولهم بعيدين عن ضجيج المدن والناس . مستقلين مطمئنين . لا يتطلبون شهرة ولا مجداً . يعيشون على الفطرة الاولى من الوجهة الجسدية . وعلى ارفع ما اتصلت اليه العلوم والحكمة من الوجهة العقلية والروحية والمعنوية . ترى احدهم بدوياً في غرائزه وطباعه . حضرياً في مزاجه واخلاقه . اميراً وفلاحاً في وقت واحد . وكثيرون من هؤلاء في الولايات المتحدة في البر لا في المدن يعيشون في عزلة عن الناس . كل في دائرته كالنجوم في حبكها . وتشع انفسهم اشعة الالفة الحقيقية التي تربط كل دائرة باختها . ولكل منهم مهنتان سماوية نسكية قوامها الآية « على الارض السلام وبالناس المسرة » ومهنة دنيوية زراعية قوامها الفكر والعمل . فيحرث احدهم الارض . ويربي المواشي . « ويقطر عربة افكاره بالكواكب السيارة » كما قال (امرسون)

وقد زرت احد هؤلاء الكبار مرة في بيته فلقيته عند وصولي قدام باب الاسطبل حاملاً جراب قمح يطعم منه الدجاج . وبعد ايام دعيت الى مأدبة في المدينة جمعت من رجال العلم والادب اشهرهم هناك وكان صديقي هذا رئيسها وقطب دائرتها . فتأملوا هؤلاء النساك نساك العقل . نساك الفلسفة . لا ينكفون عن العمل المفيد . مهما كان زرياً . ولا تأخذهم اوهام الابهة وخزعبلات الوقار والجلالة . وقد لا تعجبكم اخلاقهم او بالحري سلوكهم . فهم لا يحفلون بما تلقناه في الشرق من المجاملة والمصانعة في الضيافة . ولا يحسنون من اللطف الشرقي الالف باء . ولكن صدقاً في اقوالهم . وحرية في اعمالهم . وجرأة في حريتهم . تقربهم الى الفطرة البشرية الاولى التي لا تعرف القهر والضغط . فيسترسلون مع الطباع . ولكنهم يستعملون في ذلك الفكرة والتمييز . والفطرة الاولى اقرب الى الخير . على ما فيها من غلاظة وسماجة . لبعدها عما ينطبع في نفوس اهل المدن من سوء الملكات . وقبيح العادات . وفاسد الاصطلاحات . وهذا ما يحمل ذوي الالباب والحصافة اليوم الى السكنى في القرى او التنسك في البرية .

ذلك مبلغ نساك العلم والادب . وتلكم طريقتهم النسكية الفلسفية . ناسك الروح يعطل الحواس منه لوهم فيه ان ذلك يقربه من ربه . وناسك العقل يهذبها ويرعاها ابداً بالتربية ليقترب من نفسه فيعرفها . شعاره بساطة العيش مع سمو الادب . فيقرن

لذة الحراثة بلذة التأمل . ولذة التأمل بلذة العمل . ناسك الروح يبعد عن الناس ليقترب من الله . وناسك العقل يعتزل الناس ليقترب حقاً من الناس . فيعيش طبق فلسفته وبموجب علمه فيصير اهلاً لان يخدم الناس وينفعهم . فما قولكم بالناسكين ناسكنا وناسكهم واي منهما اقرب الى الله ؟

وهاكم مثالاً آخر من اخلاقنا الكريمة التي قلما تفيد . في لبنان يكثر الشحاذون ومنهم نساء من العرب يستعطين ليعيّشن اولادهن ورجالهن ! ومن هؤلاء البائسات بدويتان استوقفتاني يوماً فادهشني امرهما . بعد ان جاءتهما الخادمة بشيء من الدقيق جلستا على الدرج قدام الباب وفتحت كل جرابها . فاخذت البدوية الصغيرة واسمها حسنى تفرغ من جرابها الملآن في جراب رفيقتها الفارغ . فسألتها السبب في ذلك . فقالت : هي ضرتي ورجلنا يؤثرني عليها ويضربها ضرباً أليماً اذا عادت المساء وجرابها فارغ . فاشاطرها ما معي لارد عنها الضرب . فعجبت لكرم اخلاقها ولكني اسفت لما ربيت عليه من الذلة والاستكانة والاستسلام . فهي لا تستطيع ردع زوجها المتوحش الا بهذه الحيلة الجميلة . ولو حاولت ردعه ساعة غيظه لضربها ايضاً . حبذا شهامة مقرونة بالقوة والعصيان . لحم الضبع يلزم له اسنان الكلب . وانه ليحق لمثل هذه المرأة ان تهجر زوجها . ولَبارَكها الله لو فعلت . ولكن زوجها ممن يدينون بدين يأمر بضرب النساء .

وها كم قصة اخرى تمثل ما اريده بالاخلاق اللازمة والمتعدية .
مرّ اعرابي بعجوز فطلب منها طعاماً . فجاءته ببضع حيّات مشوية وبكوز من الماء المالح . فاستغرب ذلك وسألها السبب . فقالت هذا كل ما عندنا في هذا الوادي . فتعجب الاعرابي وسأل العجوز كيف تقيم هناك تأكل الحيات وتشرب الماء المالح . فقالت : وكيف تكون بلادكم . فوصف لها بلاداً فيها دور رحبة واسعة . وثمار يانعة لذيذة . ومياه غزيرة عذبة فقالت العجوز : وهل يكون لكم من سلطان يحكم عليكم ويجور في حكمه . فقال الاعرابي : قد يكون ذلك . فقالت آكلة الحيات : اذاً والله يكون ذلك الطعام اللطيف . والعيش الظريف . مع الجور والظلم . سماً ناقعاً . وتعود اطعمتنا مع الامن ترياقاً نافعاً . حكمة العجوز بليغة . وجميلٌ اباء نفسها . ولكن ذلك لا يردع السلطان عن غيه . ولا يكبحه عن جوره وظلمه .

اجل ان قناعة الحاج عبد الله وشهامة البدوية حسنى وعزة نفس العجوز آكلة الحيات لفضائل كلها جميلة ولكنها سلبية ملازمة . شريفة اخلاقهم روحية . ولكن شيئاً كهربائياً لينقصها . مثل هذه الاخلاق في الشرقي لا تؤهله لمناهضة الظلم والظالمين . لانها غير مقرونة بادراك النفس ما لها من الحقوق وما عليها . وقد يصح ان نقول ان في مثل هذه الاخلاق الشريفة نوراً وليس فيها دم . الشرقي يهرب من الظلم معتصماً بالله - « لا تجعل سلاحك

على من ظلمك الدعاء عليه ولكن الثقة بالله » . فالهرب الى البرية من الظالم جبانة . والهرب الى الله من الحياة كفران بالحياة وبباريها نفس الحاج عبد الله جميلة ولكنها ضالة . ونفس العجوز أبية ولكنها مستسلمة • ونفس حسنى البدوية كريمة ولكنها خامدة خاملة • فحيلتها لا تزيل شراسة الخلق في زوجها • وكان ينبغي لها ان تتفق وضرتها لتهجرا مثل هـذا البربري • فان خفاشاً في كهف لخير منه •

اقول وحقاً مـا اقول ان الشرقي يظل شرقياً قاعد الهمة • عاجز الرأي • خامد الطباع متخاذلاً مستسلماً • قانعاً من زمانه بالضعة والذل • اذا كان لا ينفض عن نفسه غبار السنين من الكسل والخمول • ولا يكسِّر قيوداً من التقاليد والخرافات والعادات • قيدت منه العقل والنفس والجسد •

الانسان الذي خلقه الله على صورته تعالى ومثاله . اذا تقيد في كل اعماله واقواله وافكاره . لايبقى فيه شيء من صنعة الله حرٌ جميل . الفكر ! انهضوا به من قبور التقاليد . النفس ! حرروها من خزعبلات الاوهام. الجامعة ! ارفعوها على الحكومة والحكام . الاخلاق ! روضوها للعمل المفيد . ان اخلاقنا الروحية لرأس مال كبير في حياتنا الجديدة • علينا اذاً ان نستخدمه لخيرنا وخير الشرق بل لخير الناس اجمعين • وان من لا يرجو من هذه الحياة خيراً لهو غالباً ممن لا يستأهلون الخير ولا ينالونه • كلمات

اليأس لا يزيل ترداها اليأس • التأوّه والانين لا يصلحان الشؤون بل يوهنان القوى ويورثان الخبال • لنعود انفسنا ترداد كلمات الامل والرجاء • فانها وان كانت مبنية على وهم مستحب • او فكرة طائشة • لتعودنا في الاقل العمل • وتوقظ فينا النشاط • وتشحذ منا الارادة • ان املاً اردده في نفسي كل يوم لا يلبث ان يملكها فيدفعني الى العمل لتحقيقه • المريض لا يشفيه الانين • والشقوة لا يزيلها الاستسلام الى الاقدار • لتبرهن خطتنا في امور الدنيا والاخرة على عقلنا • ولتبرهن قوتنا على خطتنا • ولتبرهن اعمالنا على هذه القوة فينا •

وحبذا الشرقيون والغربيون لو اخذ بعضهم عن بعض مما هو جميل في اديانهم • صحيح في آدابهم • سام في فنونهم • سليم في عاداتهم • سديد في عقائدهم • عادل في احكامهم وشرائعهم • فالحق يقال ان خلاصة آداب الشرق والغرب بل خير ما في الاثنين ممزوجاً موحداً • انما هو الدواء الوحيد لامراض هذا الزمان الاجتماعية والدينية والسياسية • فالغربي عندئذ يعود الى الله • والشرقي يرفع عنه تعالى بعض اثقاله •

تم الجزء الثالث من الريحانيات

ويليه الجزء الرابع

فهرس الكتاب

كتاب

اي رحلة صاحب الريحانيات في البلاد العربية وهو

يشتمل على ثمانية اقسام

القسم الاول : الملك حسين بن علي

القسم الثاني : الامام يحيى بن حميد الدين المتوكل على الله

القسم الثالث : السيد الادريسي

القسم الرابع : عدن والنواحي التسع المحمية

القسم الخامس : عبد العزيز آل فيصل آل سعود سلطان نجد

القسم السادس : آل صباح شيوخ الكويت

القسم السابع : آل خليفة شيوخ البحرين

القسم الثامن : الملك فيصل والعراق

الكتاب مزين بالخرائط والرسوم وقد يصدر في جزئين وسنباشر طبعه قريباً

